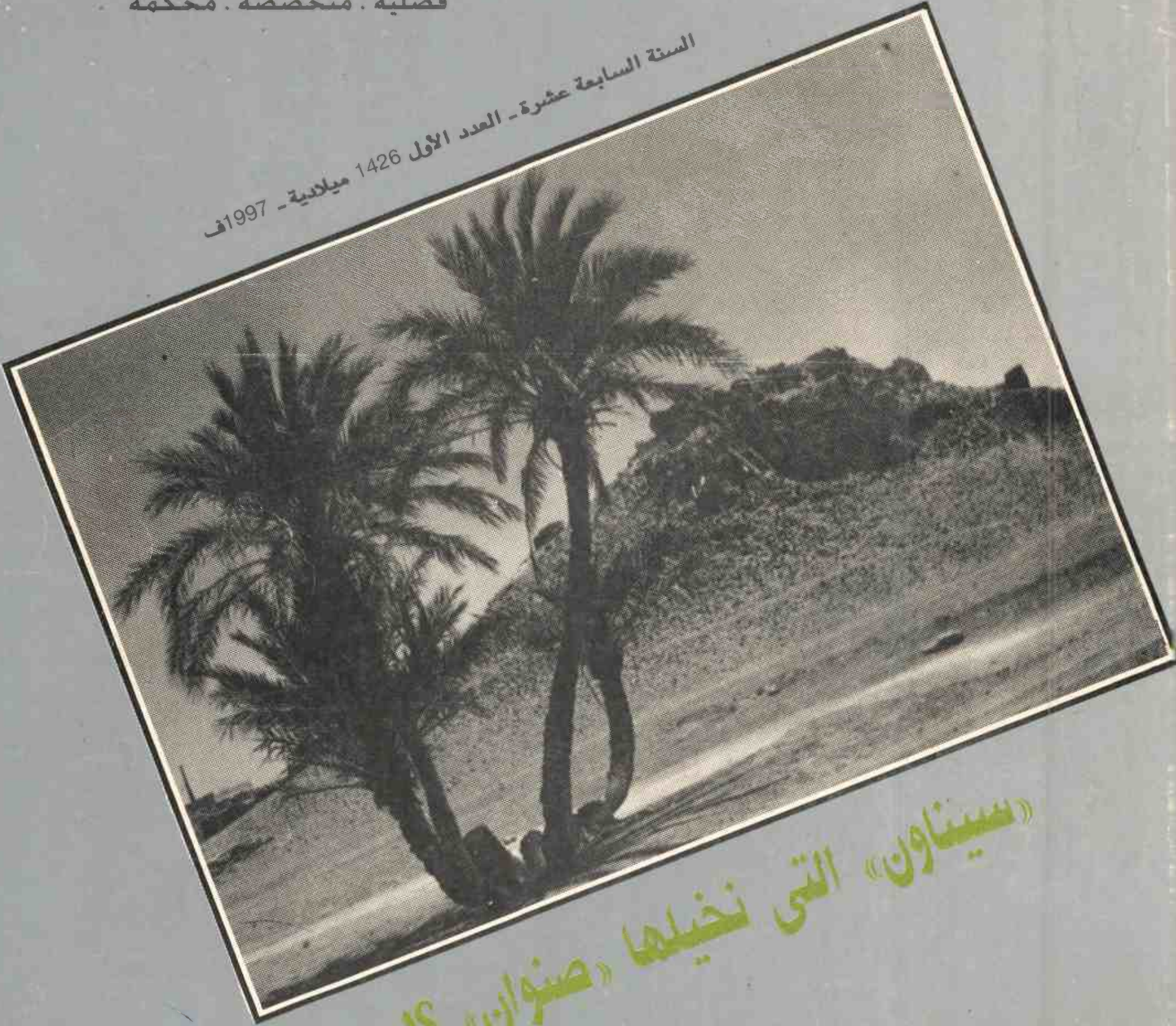
تُراثُ الشّعبِ

فصلية . متخصصة . مُحكّمة

السنة السابعة عشرة - العدد الأول 1426 ميلادية - 1997ف



«سيناون» التي نخيلها «صنوان» ؟!

- الصعاليك .. الظاهرة والخصائص .
- كلمات غيرت تاريخ الطب ؟
- مجاهد عبقري .. تجهله الأجيال !

عيسى يوسف الكويتي

تراث الشعب

كلمة

رسالة مهمة من قارئ متابع لحركتنا الثقافية كما يتضح من سطوره التى كتبها بمحبة وشغف بالاطلاع والقراءة هى التى جعلتنا نتخذ من الصورة التى أرفقها بها وبما كتبه شرحاً وتصحيحاً وتوضيحاً لها لوحة لغلاف هذا العدد من «تراث الشعب» وعنواناً رئيسياً له .

فالكثيرون بل الغالبية منا لاتعرف أنَّ اسم منطقة «سيناون» إنما هو تحريف استخدامي حدث عبر السنين وتسهيل نطقي لكلمة «صنوان» جمع «صنو» أى متلاصق التى وردت في القرآن الكريم.

ومن هنا فالقارئ يشير إلى أنَّ هذه التسمية علي الرغم من تحريفها من «صنوان» إلى «سيناون» والمكتسبة من كون النخيل في«سيناون» ينبت في معظمه متلاصقاً إنما تدل على أصالة عروبة هذه المنطقة وكل مناطق بلادنا الواسعة الأرجاء.

وهو في رسالته يطرح قضية مهمة وهي ألاّ تكون المجلة المتخصصة - أى مجلة - موجهة للمتخصصين فقط أوذوى الاختصاص فحسب وإنما يجب أن تكون للجميع وقد بينّا له في عرضنا لرسالته المنشورة في نهاية هذا العدد تحت عنوان الغلاف الرئيسى «سيناون التي نخيلها صنوان» أنَّ «تراث الشعب» وإنْ اعتمدت وتعتمد في بحوثها ودراساتها على أقلام الباحثين والدارسين المتخصصين إلاَّ أنها تتوجه في المقام الأول إلى القارئ دون سواه سواءً أكان هذا القارئ من ذوى الاختصاص أم من الذين يتابعون ويقبلون باهتمام وشغف على القراءة والاطلاع للتزود بالثقافة المتخصصة أوالعامة .

وتحية لكل قاريء ..

تُراثُ الشّعب

عيسى يوسف البلوشي

في هذا العدد

[اننا نحترم تراثنا . وثقافتنا التى كونتنا وأثرت فينا]

« قائد الثورة »

قواعد النشر في المجلة

1. « تراث الشعب » مجلة مُحَكَّمة متخصصة في التراث والموروثات الثقافية ، وتنشر البحوث والدراسات المعمَّقة التى تبحث في هذه المجالات وتدرسها كافة .

2. يخضع كل ما يقدم للتقييم العلمى ، وهى غير ملزمة بنشر كل ما يرسل أويسلم إليها من مادة ولاتعيدها لأصحابها سواء نشرت أولم تنشر .

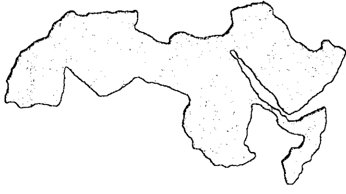
3. يجب أن يتقيد صاحب البحث أوالدراسة بالمنهجية وأصول البحث العلمي من حيث التوثيق والمصادر والمراجع ... إلخ .
ويفضل أن تكون الاقتباسات والتضمينات والإحالات متسلسة الأرقام .

4. يشترط أن تكون البحوث والدراسات مبتكرة تتسم بالجدة والجدية والمنهجية ، ولم يسبق نشرها . ولم تقدم إلى أى مجلة أومطبوعة أخرى . أيّاً كان نوع تخصصها . لهذا الغرض .

5. يشترط ألا يزيد البحث أوالدراسة عن ثلاثين صفحة (مكتوبة بالآلة الكاتبة أوالحاسوب بمسافتين بين كل سطرين) .

لوحة الغلاف

القلعة في منطقة « سيناون » التي نخيلها «صنوان» ؟!
اقرأ ص107



شعب واحد ـ تراث واحد

تُراثُ الشَّعْب

تصدر عن
اللجنة الشعبية العامة للإعلام والثقافة والتعبئة الجماهيرية
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

السنة السابعة عشرة
العدد الأول « مسلسل 36 »
1426ميلادية ـ 1997ف *

* التأريخ بميلاد الرسول صلى الله عليه و سلم هو المعتمد والمستخدم في الجماهيرية العظمى و بما أنه و لد في عام (571) من التقويم الإفرنجي وهوالمعروف عند العرب بعام الفيل فإن ناتج طرح (571) من (1997) إفرنجي يكون (1426) ميلادية.

أمين التحرير :
د . محمد أحمد وريث

هاتف : 144 -33.34081
هاتف مصور : 44.44687
ص . ب : 634
[بريد ميدان الجزائر]
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

ـ تنويه

(إن تقديم المواد المنشورة أو تأخيرها في ترتيب الصفحات ، لا يعنيان المفاضلة ، و لكن متطلبات التنسيق الفني هي التى تتحكم في هذا الترتيب)

الصعاليك
الظاهرة والخصائص

● د.. محمد أحمد وريّث

الصعاليك؟! وما أدراك من هم؟!

إنهم أولئك الذين «ملأوا الدنيا وشغلوا الناس» ومازالوا على هذا المنوال يفعلون بالدنيا وبالناس على الرغم من إيغال عصرهم فى القدم قرونا كثيرة طوالا.

وظاهرتهم (الصعلكة أو التصعلك) ـ لاشك ـ ظاهرة عربية لاشبيه لها خاصة فى أشعارها التى كانت إحدى أهم نتائجها فى عصر لا شبيه له فى تفرده بظروفه الأدبية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك السياسية نسبياً.

وهى بهذه المعطيات مجتمعة اكتسبت شهرة واسعة غير أن إعجابنا إلى حد الانبهار مدفوعين بإسقاطها على مايجرى فى العصر الحاضر جعلنا لانتعمقها بالدراسة المتأنية والتحليل والاستنباط المجرد من التحيز العاطفي ، فإذا بنا نصنع من الصعاليك ثواراً ومن صعلكتهم اشتراكية مسقطين من نظرنا أن الصعلكة ليست سوى تعبير عملى «تطبيقى» وفردى عن مجتمع كان ينظر الى الغلبة والقوة نظرة تقدير فقد كان العرب قوماً «لايسألون الضارب لم ضربت ..لكنهم يسألون الباكى لم بكيت ؟»(1)

وكان الصعاليك في مجملهم يتمثلون بعض قيم عصرهم ومنها على سبيل المثال أن العرب كانوا يرون «فى قبول الهبة مظهرا من مظاهر الضعف، فالقوي لايستجدي رزقه ولكنه يغتصبه اغتصابا »(2)

كما أنهم «لاينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المهينة التى نرفُقُ بها اللص وقاطع الطريق ، ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب مادام يسعى جهرة، ولايدبُّ دبيباً، ويتستر متزاورا »(3)

ولم يكن مشاهير الصعاليك يعملون مجتمعين ، كما لم يكونوا فى فترة واحدة باستثناء «تأبط شرا » الذي رثى خاله «الشنفرى» ولم يكن ثمة أى رابط يربط بينهم ، سوى صفة «الصعلكة» التى جعلتنا ـ بعدئذ ـ نصنفهم فى ضوئها تصنيف الظاهرة.

ومن هنا أقول:

أولاً:

إن الصعاليك الذين عرفناهم عرفوا بقول الشعر وبتجويده كذلك حتى إننا نجد المفضَّل الضبّي يستهل (مفضلياته) المختارة بقصيدة مشهورة لواحد من مشاهيرهم وهو (تأبط شرا ،

ثابت بن جابر) وتتكون من ستة وعشرين بيتاً ومطلعها:

(ياعيد مالك من شوق وأيراق
ومرّ طيف على الأحوال طراقِ) (4)

ومثلما يصنف مؤرخو الأدب العربي الشعراء ونقسمونهم طوائف (أصحاب المعلقات - الشعراء الأمراء - الشعراء الفرسان - الشعراء الحكماء - الشعراء العشاق - الشعراء الهجاءين) أطلقوا على الصعاليك الذين اقترنت أسماؤهم بإرسال الأشعار صفة (الشعراء الصعاليك) ومن الواضح أن هؤلاء ماكانوا ليشتهروا ويتناقل الرواة أخبارهم وتحفل كتب الأدب والسيرة بتفاصيل غاراتهم ومغامراتهم لولا تميزهم بفنِّ الشعر الذى كان العرب يجلونه ويجلون قائله ويحسبون للسانه ألف حساب حتى إن الرسول الكريم - فيما بعد - خاض بالشعر أهم معاركه التى كان يقودها «حسان بن ثابت» ضد الكفار وقد قرر الرسول هذه الحقيقة فقال له: «فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام» (5)

ويعضد ماذهبت إليه فى هذا الشأن أن المفضَّل الضِّبي لم يكن وحده الذى اختار شيئاً من أشعار الصعاليك فهذا أبو زيد القرشي محمد بن أبى الخطاب يختار لعروة بن الورد - كذلك - قصيدة أو قطعة من ثمانية عشر بيتا يضعها فى باب (المنتقيات) من كتابه (جمهرة أشعار العرب) جنبا الى جنب مع ستة من الشعراء المشهورين منهم (المرقّش الأصغر ربيعة بن سفيان ابن أخي المرقّش الأكبر عوف بن سعد) و(دريد بن الصمّة) وغيرهما. ومطلعها مخاطباً زوجته:

(أقلي علي اللومَ يا ابنة منذر
ونامى، فإن لم تشتهى النوم فاسهري)

غير أن الأصمعى (عبدالملك بن قُريْب تـ 216 هـ) يوردها فى «الأصمعيات برواية فيها خلاف فى الترتيب وبزيادة تبلغ بها سبعة وعشرين بيتا (6)

ومن هنا يجوز القول إن المجتمع العربى فى عصر أولئك الصعاليك كان يتسع بظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية لعدد أكبر من العدد الذى اتصلنا بمعرفته منهم .

ثانياً:

إن الحقيقة تقتضينا أن نقول إن العصر الذى سبق الإسلام والذى نسميه تعارفاً موروثا بـ(العصر الجاهلي) أو بـ(عصر الجاهلية الجهلاء) مبالغة فى الذم (وهو ذم عاطفي وغير منطقي) إنما كان عصراً لايمكن التنصل من وصفه بأنه كان تمهيداً للإسلام وإرهاصاً لنزول الأمر بالدعوة السمحة على محمد عبدالله فى مكة ليكون هادثاً إلي الدين الحق ومبشرا به ومذكراً ، وليس مسيطراً وذلك بحسب النص القرآنى (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بسيطر (أو بمصيطر) (7)

وأنه لم يكن (عصراً جاهلياً أو عصر جاهلية جهلاء) بما يعنيه الجذر (جهل) من جهل هو ضد العلم أوعدم معرفة بالقراءة والكتابة وإنما جاهليته كانت تمثِّل جاهليةأخرى تمثُلُ فى مناقضة الحلم والروية والتعقل والرحمة خاصة فيما يمسُ الكرامة والكبرياء والشرف ولذلك حذر شاعرهم وفارسهم (عمرو بن كلثوم) من هذا الجهل الذى يفسر سياقُ قوله معناه:

(ألا لا يجْهلَنْ أحدٌ علينا
فنجهلَ فوق جهلِ الجاهلينا)

(أي لا نرتضى ظلم أحد وإلا فإننا سنظلم فوق ظلم الظالمين)

وإن النص القرآني تعامل مع الرسول الكريم وفق حياته في هذا المجتمع الذى نشأ فيه فخاطبه بقوله تعالي: «فبمارحمة من الله لنت لهم ولوكنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك ..»(8)

أي برحمة من الله لأن قلبك ولم تكن مثلهم صلفاً لأنهم في حاجة إلى مثل هذا اللين في مجتمع يعجُّ بالفظاظة والغلظة.

وعلى الرغم من كل هذه الطبائع الجافية فقد كانوا - كما يقول جرجي زيدان «يفتخرون بالعفة خلافاً لما صارت اليه طبائعم حين امتزجوا بالموالي من الأمم الأجنبية وتمثيلا للفرق بين الحالين قابل ماقاله عنترة بما قاله أبو نواس الفارسي ،

قال عنترة:

(وأغضُّ طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها)

وقال أبو نواس:

(كان الشباب مطية الجهلِ
ومحسّن الضحكاتِ والهزلْ
والباعثي والناسُ قد رقدوا
حتى أتيت حليلة البعْلِ) (9)

ولم تكن كلمة الرسول الكريم: (بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاقِ) إلا مرتكزةعلى وجود قيم أخلاقية كثيرةَ عند العرب وقد بُعث الرسول الكريم ليبلُغَ بها كمالها وهو أعلى مراتبها التي تتمثل في مكارمها وهى التحلى بها لذواتها وبدوافع تلقائية منها وليست من أجل أن يقال عن الكريم إنه كريم مثلاً أو عن الناصرِ المظلومَ إنه شهمٌ شجاع ذو نجدة؟!

ثالثاً:

وإن مجتمعاً هذه طبيعة تكوينه الوجداني على الرغم مما فيه من جوانب خيرة - لابد أن يكون مفتقراً الى مقومات تنبنى على التوادّ والتراحم بين أفراده لا علي مقومات تحركها الغلبة والقوة المؤديتان إلى وجود ضعفاء وأقوياء وفقراء وأغنياء وغالبين ومغلوبين .

وهذه كلها عوامل ناتجة عن خلل في التكوين والبناء الاجتماعي وبموجب هذا كانت الدعوة الإسلامية في زمانها ومكانها المختارين تنبعث من بطحاء مكة وبموجب هذا كذلك لابد من بروز ظاهرة .. ظاهرة احتجاجية واعتراضية ومعبرة عن رفض هذا الواقع المختلّ، وهذا الوضع غير المتوازن .. فكانت الصعلكة وكان الصعاليك .

رابعاً:

وإذن ما الصعلكة؟!

لم تورد المعجمات المشهورة هذا المصدر أو الاسم المصنوع «الصعلكة» وإنما ذكرت «التصعلك» من الفعل «تصعلك» وليس«صعلك» بمعنى افتقر .

وهو هنا فعل رباعي مزيد بوزن «تفعلل» يقول العلامة ابن منظور في لسان العرب «مادة صعلك»:

«الصعلوك: الفقير الذى لامال له» «ولا اعتماد» والأخيرة زيادة نقلها عن الأزهري «محمد بن أحمد تـ370هـ» صاحب كتاب «تهذيب اللغة».

ثم يقول:«وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك ، ويستشهد في المعنى ببيتيْ حاتم الطائي :

(غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى
فكُلاً سقاناه بكأسيهما الدهرُ

فمازادنا بغياً على ذى قرابة
غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ)

ولكنَّ رواية ديوان حاتم بتحقيق وشرح كرم البستاني لهذين البيتين تجعل بعض أشطارهما موزعة على ثلاثة أبيات مع زيادة فيهما كما تورد لفظة «عُنينا» بدلاً من «غنينا» ورواية الديوان أجمل كما أنها توضح المعنى بالمقابلات المعقودة بين معاني الألفاظ:

«التصعلك ـ الغنى ـ العسر اليسر ـ اللين والغلظة ـ زادنا بأو أى افتخاراً وتكبرا ـ أزرى»

وفيما يلى الأبيات الثلاثة:

(عُنينا زماناً بالتصعلك والغنى
كما الدهرُ، فى أيامه العسرُ واليسرُ
كسينا صروف الدهر ليناً
وغلظةً وكلاً سقاناه بكأسيهما الدَّهْرُ)
فما زادنا بأواً على ذى قرابة
غنانا ،ولاأزرى بأحسابنا الفقرُ) (10)

ثم يقول ابنَ منظور:التصعلك:الفقر

وأما (الفيروز آبادى، محمد بن يعقوب ت817هـ) ويظهر أنه ينقل عن ابن منظوركما سنرى فيما بعد عند ذكر عروة بن الورد ، فلايزيد على قوله: الصعلوك:الفقير،وتصعلك افتقر.

ولكن مدلولات اللفظة،أواللفظة ذاتها تتخذ مدلولات أخري ولاتلبث ان تتطور استخداماً لتصبح مصطلحاً فالصعلوك لم يعد الفقير الذي لامال له ولا اعتماد وأصبح مفرداً لصيغة جمع هى«الصعاليك» واكتسب هؤلاء الصعاليك صفة اخرى ـ كما أسلفنا ـ فهم صاروا ايضا صعاليك وشعراء وصرنا نعرفهم بالشعراء الصعاليك كما اكتسبوا صفات أخرى منها كما يقول ابن منظور:يقال لصعاليك العرب ولصوصها :ذؤبان لأنهم كالذئاب ويقول:

ذؤبان العرب: لصوصهم وصعاليكهم الذين يتلصصون ويتصعلكون. ووتشبيههم بالذئاب دلالة على الفتك والقوة والمباغتة والشراسة والذكاء وكذلك السرعة.

وهم كذلك:

اللصوص والفُتّاك والهَلاكّ من«الهلاك» والعداؤن لاشتهار بعضهم بسرعة العدو الذى نسجت حوله حكايات تشابه الخرافات والأساطير في خيالها ومبالغاتها التى لاتصدق وهم ايضاً (الخاربون) جمع(خارب)أى السُّرّاق وكانت اللفظة تطلق على المتخصصين فى سرقة الإبل ثم توسعت لتشمل كل من يسرق دون تخصص أو تخصيص ومنهم بطبيعة الحال هذه الطائفة من الصعاليك التى نحن بصددها يقول أبو الفرج الأصفهاني عن الشاعر الصعلوك أبي الطَّمَحان القيني «وكان أبو الطمحان شاعراً فارساً خارباً صعلوكا »ومنهم من سموا«أغربة العرب»لسوداهم الذى ورثوه من أمهاتهم السود مثل«السليك بن السلكة وتأبط شرا وبطبيعة الحال خاله الشنفرى(11)

خامساً:

يعدد الإخباريون ومؤرخون الأدب العربى الشعراء الصعاليك بحوالي سبعة وهم:أولهم وأشهرهم عروة بن الورد (العْبسي)ثم الشنفرى الأزدى «عمروبن مالك»صاحب«لامية العرب» المشهورة بمطلعها:

أقيموا بنى قومى ظهور مطيكم
فإني إلى قوم سواكم لأمْـيَـلُ (*)

والسُلَيْك ابن السُلكة«السُّليَك بن عمرو» السعدى التميمى«وكان أسودلأن أمه السلكة كانت سوداء وتأبط شرا (ثابت بن جابر) المضريّ

ويليهم مرتبة فى الشهرة:

أبوالطمحان القيني(من بني القين من قضاعة)وهومخضرم وقد أسلم ولكن لم تكن له صحبة مع الرسول فيمن أسلموا أو وفدوا عليه .يقول عنه أبو الفرج الأصفهاني:

«وهو من المخضرمين ، أدرك الجاهلية والإسلام ، فكان خبيث الدين فيهما كما يذكر ، وكان ترباً للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية ونديماً له»(12) والمعروف أن الزبير بن عبدالمطلب ، أكبر اعمام الرسول عليه السلام .. أدركه فى طفولته (13) ولكنه مات قبل الدعوة بزمن طويل..

وأما مانقله أبو الفرج عن خبث الدين لدى أبي الطمحان فى الجاهلية والاسلام فإنما يوجب التذكير « بأن العرب في جاهليتهم كانت فيهم بقية من ملة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام (14)

ثم حاجز بن عوف(الأزدى)

ثم قيس ابن الحدادية (الخُزاعي) والحدادية أمه وهى من بني حداد من قيس عيلان بن مُضر ويلي هؤلاء جميعاً ذكراً كل من:

عمرو بن براّق ونقْيل بن بَراقة وقد اشتهرا بسرعة العدو مثل الشنفرى الذى ضرب به المثل فقيل(أعدى من الشنفرى) والسّليك ابن السلكة وتأبط شرا ، ومن مبالغات الإخباريين.

فى سرعة العدو عند هؤلاء مايرويه أبو الفرج الأصفهاني عن السليك حيث يقول:«وكان السليك من أشد رجال العرب وأنكرهم وأشعرهم، وكانت العرب تدعوه سليك المقانب، وكان أدلَّ الناس بالأرض واعلمهم بمسالكها وأشدهم عدواً على رجليه ، لاتعلق به الخيل»(15)

والمقانب جمع مقنب وهى مجموعة الخيل المعدة للغارة كناية عن كون السليك شديد السرعة كثير الغارات.

ويمتاز هؤلاء الصعاليك جميعاً ـ عدا العدو الذى وصف به بعضهم فقط ـ بكل الصفات السابقة التى رواها أبوالفرج عن السليك، الشدة والشجاعة والعلم بمسالك الأرض وجودة الشعر على قلته عند بعضهم.

سادساً:

من خلال نسبة كل منهم الى قبيلته نجد أن السبعة الأكثر شهرة ينتمون الى قبائل كبيرة، خمس منها فى العربية الشمالية واثنتين فى العربية الجنوبية«اليمن» بمعنى أن اثنين منهما من أصل يماني ، وإن عاش فى الشمال وهم على النحو التالي:

عروة بن الورد	من عبس
تأبط شرا	من مُضر
السُّلَيْك بن السلكة	من تميم

الشنفرى وهو خال تأبط شراً وحاجز الأزدي من الأزد من بني كهلان من العرب القحطانية(اليمانية) يقول أبو محمد علي بن حزم الأندلسي) فى (هجرة أنساب العرب «جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال: وهم عدنان وقحطان وقُضاعة»(16)

أبو الطمحان القيني من قضاعة.

قيس ابن الحدادية او قيس بن منقذ من خزاعة.

سابعاً:

يقول الأصفهانى عن قيس ابن الحدادية:

(*) يذكر د. شوقي ضيف بعضا مما أثير حول قضية انتحال مشاهير الرواة للشعر وينقل لنا أن شكوكاً تروج عن وضع (خلف الأحمر) لهذه القصيدة ، انظر د. شوقي ضيف ، العصر الجاهلي(مرجع مذكور فى الهامش 12) ص153.

«شاعر من شعراء الجاهلية، وكان فاتكا شجاعاً صعلوكا خلعته خزاعة بسوق عُكاظ وأشهدت على نفسها بخلعتها إيّاه فلاتحتمل جريرة له ولاتطالب بجريرة يجرّها أحد عليه»(17)

وقد خلعت«تبرأت» بعض القبائل الأخرى من بعضٍ صعاليكها وذلك اتقاء للثارات التى ستجرٌ عليها ويلات تعرّضها للغارات الانتقامية.

ولكنْ أن تخلع قبيلة أحد بنيها«تتبرأ»منه وعلى رؤوس الأشهاد وفي محفل ضخم كسوق عُكاظ فإنّ ذلك يعني أن أولي الأمر فيها «السادة»هم الذين قرروا هذا حفاظاً على أمنهم ومصالحهم وهى مصالح تتعلق بالمال والاقتصاد والثروة وهذه لاتكون إلاّ في أيدي الاثرياء الذين يملكون الأموال وبالتالي يملكون القوة ومن ثم يملكون القرار والسلطة في القبيلة.

ويجب ألاّيغيب عن أذهاننا أن نشوء ظاهرة الصعاليك والتصعلك إنما كان بسبب احتكار الثروة فى حوزة قلة قليلة فى القبيلة الواحدة بينما بقية الناس يعانون من الفقر«التصعلك» والحاجة .

ويجب أن نذكر أيضا بأن ثمة أحلافاً كانت قائمة بين القبائل العربية لضمان وتأمين طرق قوافلها التجارية نحو اليمن أوالشام وحتى الحبشة كماكانت تفعل قريش مثلاوأنّ «هذه الأحلاف تشيرإلى أن العصبيات القرشية الداخلية كانت مستقوية أيضا بأحلاف تجارية،فكأنما كل عصبية فى مكة هى بيت تجاري أو وكلاء معتمدون أو متعاملون تجاريون يحتكرون التجارة القرشية جميعاً فى هذا الاتجاه أوذاك»(18)

وللحفاظ على هذه الاحتكارات وخوفاًمن أن يتساوى الفقراء بالأغنياءكانت معارضة كبراء قريش للرسول الكريم وتصديهم لدعوته.

ونحن نعلم أن الاحتكارات فى أي زمان أو مكان إنما تولد العبودية والظلم «وبخاصة إذا سدت منافذ التملص وكوات الحرية والتحرر على من يرفضون الخضوع لهذا النظام الحديدى المستأتر ولم يبْق للناس فى الجاهلية لكسر الطوق ولبعض التحرر سوى الصعلكة والتحنف أي الإيمان والعزلة بما يشبه الترهب الاجتماعى»(19).

وقد كان الرسول محمدُ عبدالله أحد المتحنفين، وأمضى زمناً متأملا منعزلاً فى غار حراء،وأما هؤلاء الصعاليك فلم يكن أمامهم سوى هذا الطريق الذى اقترن عند أغلبهم بإعلان التمرد علي العبودية والظلم بالإغارة على القبائل وترويعها والاستيلاء من اموالها بالقوة مالم تُعْطه طواعية.

ولعل اجتماع التصعلك أوالصعلكة مع التحنف مع وجود بقية من ملة إبراهيم عليه السلام عند العرب جميعاً هى التى كانت إرهاصاً وتمهيداً كما سبق القول لإعلان داعي السماء بنزول القرآن على المتحنف المتحنث الأعزل المنعزل الزاهد الفقير محمدٍ عبدالله في غار حراء بكلمة البدء الخالدة مفتاح المعرفة «اقرأ».

كما لايفوتناأن نذكرأن ظاهرة الصعلكة قد استغرقت من الوقت فترات متفاوته على مدى حوالى قرن من الزمان فلم يكن كل الصعاليك ممن عرفناهم أوبقينا على جهل بهم وبإعدادهم متزامنين اوعلى صلات تربط بعضهم بعضاً

سوى مانجد مثلا فى بعض المصادركالأغانى من رثاء تأبط شراًلخاله الشنفرى عندما قتل أو اشتراك عمروبن براّق مع تأبط شراً فى إحدى الغارات ولعل ذلك راجع الي كون الاثنين يجتمعان فى خصوصية أوميزة هى سرعة العدو التى تتطلبهاهذه الأعمال الاعتراضية لإبل القبائل المستهدفة بها.

ثامناً:

ومثلما كان لهؤلاء الصعاليك أثر كبير فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ،كان لهم أثر كبير فى الحياة الأدبية فى العصر الجاهلي فقد خلصوا القصيدة العربية من مقدمتها الطللية، فلم يكن للصعاليك من ديار للأحبة يقفون بها يبكونها وينتحبون بين آثارها الدوارس ، وانما كانت لهم زوجات وحبيبات وصاحبات فلابد أن يخاطبوهن مباشرة مودعين شاكين من البعد والفراق ومنوهين بالمصير المجهول الذى قديلاقونه فى غاراتهم ومغامراتهم الدامية في كثير منها، فقد لايكون ثمة من عودة أو لقاء، ولكن لايفوتهم أن يشيدواأمامهن بشجاعتهم وبقوتهم وصلابتهم وشدة بأسهم،حتى يواسوهن ويبعثوا فى قلوبهن الطمأنينة والعودة سالمين.

ولابد أن نشير إلى أن أشعارهم ، علي قصرها النسبى فى عصرها إذهي إمّا قصائد قد لاتتجاوز الثلاثين بيتا وإمّا مقطعات أو أبيات قليلة ، تشيد بكثيرمن القيم السامية مثل العفة والوفاء بالوعد والكرم والإيثار، ومراعاة حرمة الجار فى عرضه وماله وإغاثة الملهوف وإجارة المستجير وحمايته وغيرها من القيم مما لوتتبعناها في أشعارهم واستشهدنا لها وتمثلنا بها لتطلب حيزاً كبيراً علي الرغم من أن هذه الاشعار تمثل الشاعرية الأصيلة غير المتّكلفة المرسلة علي السجية والنابعة من عاطفة متأججة وتجربة عميقة فى كل ماتعرض له وتعرضه.

تاسعاً:

ان هذا العرض المختصر والسريع لهذه الفئة «المتصعلكة» الثائرة المتمردة على الأوضاع التى كان يعيشها المجتمع العربي الجاهلي يحتم علينا أن نلتفت التفاتة خاصة وموجزة لأشهر الصعاليك وهو «عروة بن الورد »الذى نتلمس فى حياته أو فى« تصعلكه» وعيا بنزوعه إلى طلب المساواة بين الفقراء والأغنياء، والاخذ ممن يزيد ماليديهم على الحاجة لاعطائها المحتاجين المعدمين فلم تشب سيرته شائبة من تلك التي شابت الصعاليك الآخرين من شبهة اللصوصية الي شبهة قطع الطريق إلى غيرهما من الشبهات التى قد تنقص من أقدارهم علي الرغم من شجاعتهم وتحليهم بروح من الفروسية عالية.

ربما كان هؤلاء يقومون بما قاموا به احتجاجاً وتمرداًوحباً فى الانتقام والمغامرة بترويع الأغنياء وقضّ مضاجعهم ولكن عروة بن الورد كان غير ذلك، فقدكان عروة بن الوردكما يقول الإخباريون ومؤرخو الأدب وأصحاب المعجمات كذلك ومنهم ابن منظور والفيروزآبادى نقلا عنه:« يسمي عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم بما يغنمه»(20).

مماقد نستخلص منه أنه كان يقيم مايشبه دور الرعاية، او مخيّمات الإغاثة أو الملاجئ للصعاليك أي الفقراء(وهو مايمكن ان نصفه بالتكافل الاجتماعى) ويفصّل أبو الفرج الأصفهاني فى هذا رواية عمن نقل منهم

فيقول: «كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة، يحفر لهم الأسراب ويكنُف عليهم الكُنف «الحظائر» ويكْسبهُم «يطلب المعيشة لهم» ومن قوي منهم ـ إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباحثين فى ذلك نصيباً ، حتى اذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ، ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى فلذلك سُمّى عروة الصعاليك» (21)

وهذا بيت لعروة يعبر عن حنوه على صعاليكه:

وانى وإيّاهم كذى الام ارهنت
له ماء عينيها تفدّي وتحملُ (22)

وأرهنت: أدامت

ولعل أخبار عروة بن الورد قد فتنت ـ علي الرغم من المبالغة ـ بعض الأعلام فى الإسلام كما تنقل بعض الروايات ، اذ قيل ان معاوية بن أبى سفيان قال:

«لوكان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم» (23)

وإن عبدالملك بن مروان قال:

«مايسرني أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلأ عروة بن الورد لقوله:

واني امرؤعافي في إنائى شركة
وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحدُ
اتهزأ مني إن سمنتَ أنْ ترى
بجسميَ مس الحقّ والحقُّ جاهدُ
أفرّقُ جسمي فى جسوم كثيرة
وأحسو قَراح الماء والماءُ باردُ (24)

ويقول أبو الفرج الأصفهانى فيما يرويه من أخبار عروة بن الورد على لسان الحطيأة الشاعر الهجاء الذى لايرضيه شئ ويبخل حتى بالكلمة الطيبة ، إن عمر بن الخطاب قال للحطيأة :

كيف كنتم فى حربكم؟ قال: كنا ألف حازم ، قال: وكيف؟

قال: كان فينا قيس بن زهير وكان حازما وكنا لانعصيه، وكنا نقدم إقدام عنترة ، ونأتمّ بشعر عروة بن الورد ،وننقاد لأمر الربيع بن زياد (25).

فهل أصابوا فيما ذهبوا إليه؟

وهل يصدُق ما وُصف به هؤلاء؟

وهل سأل عمر بنَ الخطاب الحطيأة حقا؟!

أم هى رواية لخبر اصطنعها الإخباريون العرب فيما اصطنعوا من رواياتهم التي لاتحصى؟!



الهوامش والمراجع :

(1)ـ الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، د. محمد محمد حسين / بيروت ـ دار النهضة العربية (ط3) 1970ص81.
(2)ـ نفسه ص99.
(3)ـ نفسه ص81.
(4)ـ المفضليات ، المفضل بن محمد بن يعلى الضبّي ، تحقيق وشرح: أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ، القاهرة ـ دار المعارف 1979، ص ص 27 31.
(5)ـ العقد (الفريد) أبو عمر بن عبد ربه الأندلسي ـ تحقيق أحمد أمين وآخرين ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ 1949ج 5 ص277.
(6)ـ جمهرة أشعار لعرب ، أبوزيد محمد بن أبى الخطاب القرشي بيروت ـ دار .بيروت للطباعة والنشر 1980 ـ ص ص 205 ـ 206 الأصمعيات طبعة مصورة لطبعة(وليم بن الورد البروسي ـ فلهلم الفارت) المستعرب الألمانى بيروت ـ دار الآفاق الجديدة ـ1981 ص ص 30.29
(7)ـ سورة الغاشية الآية 22
(8)ـ سورة آل عمران من الآية 159.
(9)ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجى زيدان ـ بيروت ـ دار مكتبة الحياة (ط2) 1978 جـ 1 ص86.
(10)ـ ديوان حاتم الطائي تحقيق وشرح كرم البستاني ـ بيروت ـ دار المسيرة(ط2) 1982. ص73.
(11)ـ(12)ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (طبعة دار الثقافة) بيروت(ط5) 1981 مج13ص3 وانظر فى التسمية(أغربة العرب) العصر الجاهلي ـ د. شوقي ضيف سلسة « تاريخ الأدب العربي» مصر ـ دار المعارف ـ 1976 ص375.
(13)ـ الأعلام .خير الدين الزركلي .بيروت ـ دار العلم للملايين (ط5) ـ 1980 ـ مج 3ص42.
(14)ـ الهجاء والهجاءون ص101.
(15)ـ الأغانيي مج 20ص347
(16)ـ جمهرة أنساب العرب.. أبومحمد على بن حزم الأندلسي ..تحقيق: عبدالسلام محمد هارون ـ القاهرة ـ دار المعارف ـ 1962ص7.
(17)ـ الأغاني .. مج 14ص137.
(18)ـ الأسواق العربية « مقالة» الكتاب الشهرى «تراث العروبة 8 المشرف العام شوقى خيرالله ـ بيروت ـ المركز العلمي للنشر والتوزيع بيروت (د.ت) ص67.
(19)ـ نفسه وكذلك الصفحة
(20)ـ مادة «صعلك» فى المعجمين
(21)ـ الأغاني مج 3 ص75
(22)ـ نفسه والمجلد نفسه ص77
(23)ـ(24)ـ(25)ـ نفسه والمجلد نفسه ص ص 71.70

هؤلاء الأباطرة وألقابهم العربية

[2] كالغُلا

• د. على فهمي خشيم

يشتهر إمبراطور روماني باسم رداء كان يرتديه حتى يغلب على اسمه الشخصي ولقبه الرسمي ،كما حدث للإمبراطور« كَرَكَلاَّ »(1) أمر مفهوم،أماأن يعرف إمبراطورآخر بلقب هو اسم حذاء فمسألة تدعو للنظر . هل هي سخرية الجماهير المسحوقة ،أم هزء المظلومين المطحونين ،أم انتقام من الطاغية الذى تألّه؟ أم حكم التاريخ الذى يقول للجبار العنيد :

إنك لاتساوى نعلاً من النعال مهماتجبرت وتكبرت وعلوت فى الأرض ؟!

لايوازى شهوة «نيرون»(حارق روما ـ كما يقال)عتواً وجنوناً من أباطرة الرومان سوى شهرة «كالغُلا»(وقد سرت كتابة الاسم فى العربية :كَاليغولا) واسمه ولقبه الرسمى الكامل: غايوس يوليوس قيصر جرْمانكوس وهو ابن جرمانكوس من زوجته أغْرِبِّينا ،ولد سنة 12 للميلاد ، وقتل غيلة سنة 41م.

أى أنه لم يعش سوى تسعة وعشرين عاماً، وقد نصب إمبراطوراًسنة 37م.

(1) انظر : العدد الماضي من (تراث الشعب).

وفى خلال السنوات الأربع التي احتل فيها عرش روما مارس كل ضرب من ضروب الفسوق والفتك،جرائم خلقية، وارتكاب فحشاء بالمحارم ،واغتيالات للأصدقاء والأقارب، تسيره أهواؤه الجامعة وجنونه المريع وشخصيته القلقة ونفسيته المضطربة، وقد قام بهجمات على جيرانه من الشعوب. فأحرق ودمر وخرب .

ثم لم يلبث أن جاءته اليد المنتقمة فى قصره الفاخر بروما ،فقتل هو وزوجته الرابعة وابنته الوحيدة.. وكنسه التاريخ. وبقى لقبه الذى اشتهر به: «كالغُلا».

يقول معجم أكسفورد للكلاسيكيات Oxford Classical Dictionary إن الاسم يرجع إلى أيام طفولته،إذ كان مع والديه على نهر «الراين» من سنة 14ـ16م(أى ما بين الرابعة والسادسة من عمره) وكان أبوه «جرمانكوس» يقاتل القبائل الجرمانية هناك .

وكان الطفل الإمبراطورى يعيش مع الجنود فى جفائهم وغلظتهم،ويحاول تقليدهم شأن أى طفل،فيرتدي حذاءً عسكرياً ليتشبه بهم،

فصنع له حذاءً يوائم قدميه الصغيرتين فكان أن أطلق عليه الجنود لقب Caligula ومعناه: «النّعَيْل» أى النعل الصغير.

«من هناكانت البداية».. وبهما نبدأرحلتنا القصيرة:فى ليبيا تستعمل كلمة إيطالية الأصل تجرى على اللسان عند الغضب أو السخرية تعبيراً عن الركل بالقدم(قارن صلة «ركل» برِجْل)هى كلمة «كالشو» توازى بالضبط التعبير فى لهجة أهل مصر: «شَلُوت».

الإيطالية Calcio´ (ركلة، ضربة قدم) ذات صلة بكلمات أربع تهمنا هنا:

1. Calzare

(ينتعل حذاء - ولها مشتقات كثيرة)

2 - Culcare

(يطأ ،يدوس)

3. Calcare

(حجرالجير ويستعمل فى صناعة الاسمنت / كلس)

4. Calca

(ازدحام،تجمع،حشد،تجمهر)

وقديسأل القارئ : ما الصلة بين هذه الكلمات وبينها وبين اسم«كالغُلا»؟

صبراً قليلاً.. فالصلة تكمن فى أنها تعود الى الجذر اللاتينى «cal» وهو جذر انبثقت عنه مجموعة كبيرة من المفردات والتعبيرات المتعلقة بالقدم وما يكسوها من نعال ،وجوارب، منوعة،ثم ما يكسو الركبة من لفافات،وما فوق الركبة من فخذ تكسوه سراويل تطول وتقصر..الخ،فى اللاتينية ذاتها وفى اللغات المنحدرة منها كالإيطالية والإسبانية وغيرهما.

من معجم اللاتينية نختارأربع كلمات لنرى ماذا تعنى:

1. Callis

أثر ، سير، قطيع الحيوان ، طريق تتبعه الحيوانات ، ربط الأقدمون بينها وبين Callum , Callus(قدم صلبة).

2 - Callum(وجمعها Calli)

جلد سميك صلب فى الحيوان ، جلد تيبّس،ذات صلة باليونانية (Kallo(son بمعنى: قشرة ، كلمة لا يعرف أصلها.

3. Calo´

حذاء من خشب، نعل عسكرى ، كلمة قد تكون من بلاد الغال ، مقترضة ،ذات صلة بكلمة Caliga

4. Caliga

حذاء ذو رباط أونوع من التطريزكلمة مقترضة ليست رومانية،ذات صلة بكلمة - Calx)-calo) جص، جير ، كلس .

إن تتبع تاريخ هذه الكلمات واشتقاقاتها وتطور دلالاتها سوف يستغرق وقتاً طويلاً وتحليلات قد تشق على القارئ .

المهم هو إدراك أن الأصل البعيد جداً لنشأتها هو معنى«التيبس» والصلابة، شأن أحذية الجند المقاتلين وأقدام الحيوانات التى تسعى فيصيبها من الآفات ما تصلب به، وشأن الطريق الذى تدوسه فيقسو ترابه ، أوتتجمع فيه قطيعاً (وفى التجمع معنى التماسك والصلابة) فتغدو حشداً يشد بعضه بعضاً تماماً كمايشد الجير المستعمل فى البناء (وندعوه: الكلس) أحجاره . وبمناسبة ذكر « الكلس»(فى اللاتينية calco´, cals , calx) فإن معجم اللاتينية يقرر بوضوح أن الكلمة ليست لاتينية ولا رومانية وأنها مستعارة من لغة بحر

متوسطية ، غير اليونانية(ماذا تكون إذن إلا العروبية؟) وأن دلالتها الأولى هي:«التيبس» مثلما هو الحال في الجَسَأة (الثؤلول ، أويبيس جلد القدم) التي تسمى...«الكالو».

نمضي فوراً - وبدون إبطاء - إلى (اللسان) ننشد النجدة والعون،فيستجيب - باركه الله!- في مادة «كلع»(ولاحظ أن العين لاتوجدفي اللغات الأوروبية)لنقرأ«الكلع»شقاق ووسخ يكون بالقدمين.كلعت رجله،تكلع ،كلعاً، كلاعاً تشققت واتسخت قال حكيم بن مُعَيَّة الرَّبَعي:

يؤولها ترْعيةٌ غير ورَعْ

ليس بفانٍ كبراً ولاضَرَعْ

ترى برجليه شقوقاً في كَلَعْ

من بارئٍ حيصَ ، ودامٍ مُنْسلِعْ

{أي ترى برجليه شقوقاً في متيبس صلب، أو قشرة جامدة}.. والكولع: الوسخ. وكلع فيه الوسخ ،كلعاً:إذا يبس،وإناء كَلِع ومُكْلِعٌ: التبس عليه الوسخ ،وسقاء كَلِع.

فأنت ترى أن مادة «كلع» العربية تكافئ تماماً مادة calo َ اللاتينية في معنى الصلابة.. وكماتطورت الدلالة في اللاتينية نجدها تتطور في العربية كذلك ،قال(اللسان):

«والكلاعي:الشجاع،مأخوذ من الكلاع وهو البأس والشدة والصبر في المواطن» وفي هذا معنى الصلابة والتماسك.

ثم قال:

«والكلع:أشد الجرب وهو الذي يبيض جرباً فييبس»فقارن«الكلْس»أي:الجير،أوالجص للبناء.

وقال:

«والكلعة: القطعة من الغنم،وقيل الغنم الكثيرة» ولك أن تقارن هنا اللاتينية.

حتى ختم بقوله:

«والتكلع: التحالف والتجمُّع(قارن الإيطالية) لغة يمانية.وبه سُمّي ذو الكَلاع ، بالفتح وهو ملك حمْيري من ملوك اليمن من الأذواء{جمع «ذو»} وسمى ذا الكلاع لأنهم تكلعوا على يديه وإذا تجمعت القبائل وتناصرت فقد تكلعت ،وأصل هذا من الكلع يرتكب الرِّجْل.

ها نحن اذن نجد المكافئ العربي في مادة«كلع» اللاتينية «cal» وهما حذو النعل للنعل ،كما يقال تطورت الدلالة من المحسوس الى المجرد.

وها نحن نجد لقب ملك حمْيري وهو«ذو الكلاع»(أى صاحب الكلاع) وفسر اللقب بأن الناس «تكلعوا على يديه أي تجمعوا» ولكن لاننسى أن«أصل هذا كله من الكلع يرتكب الرجل» وسواء كان هذا الكلع وسخاً ينمو طبقات،أو قشرة بسبب مرض يصير به جلد القدم صلباً، أو جلداً يبس في الرِّجْل كأحذية الجند القاسية ، فالأمر واحد، نجد هذا اللقب الملكي الحمْيري مطابقاً تماماً للقب الإمبراطوري الروماني «كالغُلا» caligula تصغير calo َ كلع!

ملحق صغير:

في معجم اللاتينية كلمة caligo َ بمعنى:أسود ،داكن معتم، تطورت إلى معنى: غامض ، مبهم ، وكذلك calius : رماد ، وأصلها مجهول وإن ظلت في اللهجة البروفنسالية والإسبانية (المعجم الاشتقاقي للغة اللاتينية)

في مادة «كلع» في«اللسان»:

وأسود كَلِعٌ: سواده كالوسخ ، ورجُلٌ كَلِعٌ كذلك(أي أسود)..فتأمل!

وآخر:

فى اللاتينية callis ـ تجمع

العربية:كلز..كل.الشئ،يكلزه،كلزاً جمعه اكلأزّ: ، الكلاز: المجتمع الخلق ، الشديد. اكلاز اكلئزازاً : انقبض ، تقبض،

انجمع تجمع (اللسان:كلز)

وأخير :

افرد الدكتور ابراهيم السامرانى فى كتابة (دراسات فى اللغتين السريانية والعربية) فصلاً صغيراً بعنوان« كتاب فاعول »أورد فيه ماجاء فى العربية الفصيحة والدارجة على وزن « فاعول ».

وهو وزن سريانى اعتمدته العربية وجاء فى هذا الفصل (ص165):و« القالوش »:مايلبس فوق الحذاء اتقاءً للوحل أيام المطر.ويسمى فى العراق« الكالوش ».

فانظر ماذاحلّ بالإمبراطور الرهيب« كالغُلا » ـ اعنى ماذاحلّ باسمه المبجّل .لقد صارَ وقاءً للأحذية يُتَّقى به الوحل!



كلمات غيرت تاريخ الطب ؟

• د.عبدالكريم أبو شويرب

نظريات علوم الطب التى وصلتنافى العصور الحديثة هى حصيلة أبحاث وآراء العديد من أساطين هذه العلوم وقد جرى عليها بين كل حين وآخر الكثير من التغيير والتحسين وربما حتى الإلغاء لثبوت بطلان أوعدم صحة نظرية وهكذا كلما استجدت نظرية جديدة حلت محل القديمة وذلك بمايتفق مع رأى العلم وتطوره خلال هذه العصور.

ولقرون طويلة بقى الإنسان حائراً أمام العديد من الأمورتتعلق بجسم الإنسان ووظائف أعضائه وأجهزته وتركيبها وشكلها الداخلي وخصوصاً فى فترات زمنية كان فيهاالتشريح من الأمور الممنوعة بشكل قطعي ..

ولحل رموز هذه المشكلات كان الأطباء يفترضون آراءونظريات قريبة من المنطق والتفكير السليم،لكن ربمااتضح خطؤها فيما بعد ومثل ذلك،النظريات حول حواس الجسم كالإبصار والسمع وغيرها ،كذلك وظائف المخ والقلب والرئتين والكلى والجهازالتناسلي كما بطلت نظرية «أبقراط»حول الأخلاط الأربعة (العناصر والأمزجة الأربعة)التى كانت سائدة حتى فترة عصور القرون الوسطى الأوروبية والتى كان يفسربها جل أمراض الإنسان بسبب عدم توازن هذه الأخلاط أوالأمزجة داخل الجسم.

وكان قسم من الأطباء يقوم بتشريح بعض الحيوانات بغرض التعرف على أجهزة الجسم وأعضائه والتعلم منها ،وقد قام جالينوس بتشريح القرود على أنها قريبة التركيب من أعضاء وأجهزة الإنسان.

وبالنسبة للجهاز الدورى أى دورة الدم داخل جسم الإنسان بدءاًمن القلب وخلال أوعية الشرايين ثم الأوردة ثم إلى القلب ثانية محملاً بالشوائب والرواسب ثم يصفى ليعود لدورته الكبيرة هذه فقد عرف الإنسان منذ عصور بعيدة وجودهذه الدورة بالعقل والمشاهدة.

وبقي العالم حائراً أمام السؤال: كيف وأين تحدث تنقية الدم من هذه الشوائب التى تجمعت؟

وعبر تاريخ الطب نجد العديد من المحاولات للرد على هذا التساؤل.لقد افترض بعضهم أن الدم ينقى بالمخ ورأى آخرون أن القصبة الهوائية متصلة بالأورطى ومنهايحدث اختلاط الهواء بالدم حيث يصفى،ورأى غيرهم ومنهم جالينوس أن الدم يصفى فى القلب خلال حركة الانبساط

• تراث الشعب • العدد 1 • مسلسل 36 • السنة 17 - 1426 / ميلادية 1997ك

والانقباض المتوالية، واعتقد ابن سينا أن للقلب ثلاثة بطون أيمن وأيسر وأوسط وهو الذي يختلط فيه الهواء بالدم، وهكذا يصفى قبل أن يوزع عن طريق الأورطي (الأبهر) على كل الجسم، أما قسم آخر من الأطباء فرأى وجود ثقوب مرئية أو غير مرئية بين البطينين حيث يمر الدم من الأيمن إلى الأيسر فيصفى ويدخل الدورة الكبرى .

وهكذا استمر تناقل هذا الكلام من طبيب لآخر ومن كتاب لآخر لسنوات طويلة دون أن يجرأ أحد على تعديله أو نقده.

حتى جاء عصر ابن النفيس (القرن 7هـ/ 13م) حيث اشتهر العديد من الأطباء العرب الذين درسوا الطب بمدرسة دمشق الطبية واعتمدو فى تشخيص الأمراض على الحس والمشاهدة والتجربة، ولم يقبل ابن النفيس كل الآراء السابقة بخصوص تنقية الدم حتى وصل بنفسه إلى الحقيقة والرأى العلمى السديد ولكن التصريح بذلك ليس من الأمور السهلة.

ماذا يمكن أن يحدث لو قرأ أحد المتشددين كتابه وعرف أن ابن النفيس قد مارس التشريح وهو الذى يقول :إن التشريح يكذب..؟

ماذا يمكن أن يحدث لو قرأ الأطباء المعاصرون أو عرفوا نقضه لنظريات أبقراط وجالينوس وهما على مالهما وماعليهما من هالة القدسية والاحترام؟

ماذا يمكن أن يحدث لو قرأ الأطباء العرب معارضته وتكذيبه لآراء الرازى وابن سينا علانية وبشكل صريح؟

واخيراً ماذا يمكن أن يحدث لوقرأ الأطباء بعد مئات السنين كتابه ووجدوا به أخطاء ومغالطات وتكراراً لنظريات السابقين الباطلة؟

وهكذا نجد ابن النفيس ذكيا لبقا استطاع أن ينفذ من كل هذه المصائد بحكمة وبراعة بحيث أنه أرضى الجميع ولم يتعرض لأى تسخيف أو إهانة وحاز كل احترام وتقدير فى عصرنا الحاضر بعد التحقق من صدق اكتشافه وآرائه التى أوردها في كتبه.

إن من يقرأ الآن كتب ابن النفيس يدرك أنه قد كتبها لتقرأ فى هذا العصر ومابعده وهو القائل:

والله لو لم أعلم أن كتبى ستقرأ بعد مئات السنين ماكتبتها (1)

وكان أول شئ عمله أن ضمن نظرياته وأفكاره فى كتاب باسم:

«شرح تشريح القانون»أى أن الكتاب هو مجرد شرح والحقيقة أن الشرح جاء بأسلوب سهل واضح حتى غلب اقتناء هذا الكتاب على كتاب القانون نفسه،ثم انظر إلى كلمة تشريح وهى نستعملها هذه الأيام بمعنى تعرية ونقد!

كان وصف الدورة الدموية الصغرى ضمن شرح القلب ووظائفه.

وطبع وترجم كتاب شرح التشريح إلى عدة لغات وكان الكتاب المنهجي في كليات الطب بأوروبة ومنها مدن مونبليه بفرنسة والبندقية بايطالية وبادوفة الإيطالية التى جاءها الطبيب الإنجليزى هارفى سنة1602 ليدرس الطب والذى أعلن فيمابعدوصف الدورة الدموية الصغرى 1628 والتى تنسب له كمكتشف لهاإلى أن تم تصحيح ذلك حديثاً.

قال في مقدمة كتابه(وكثيرون يقرأون المقدمة فقط):إن التشريح من العلوم المهمة لمعرفة شكل ووظائف الأعضاء ولكن ماصدنا عن ممارسة

التشـريح هو مـا فى ديننا من رحمـة واحتـرام للإنسان.

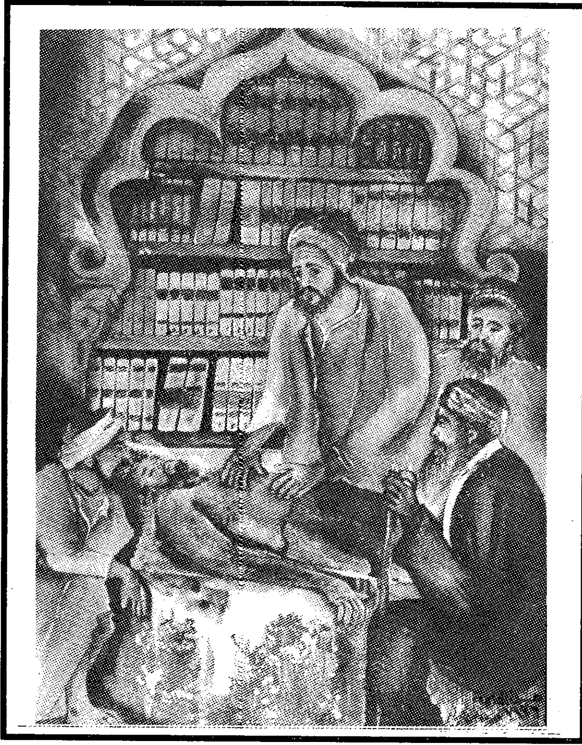
ولكنه لايلبث أن يلغي هذا الكلام بجـمل عـديدة تؤكـد ممارسـتـه للتـشـريح ومنهـا:أن التـشـريح يكذب ذلك ،وأن مـاقـيـل باطل بالمشاهدة..وأن هذا كلام لايجوز..الخ

وخلال شروحه لايمر اسما جالينوس أو أبقراط إلاّ وتسبقهما كلمة «الفاضل»أو«الفاضلين» وهذا غاية التقدير والاحترام لهما.

ونأتى الآن إلى الجـملة التى أوردها ابن النفـيس فى هذاالكتـاب والتي تم الاسـتناد عليـهـا بأنها تثبت اكتـشـاف الدورة الدموية الصغرى لأول مرة من طرفه، يقول ابن النفيس فى كتابه شرح تشريح القانون:

«وهذا التـجـويف هو التـجـويف الأيمن من تجـــويف القلب، وإذا لطف الدم فى هذا التجويف فلابد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث يتولد الروح ولكن ليس بينها منفذ فإن جِرم القلب هناك مصمت ليس فيـه منفذ ظاهر كـمـا ظنه جـماعـة ولامنفذ غيـر ظاهر يصلح لنفـوذ هذا الدم هناك كـمـا ظنه جالينوس فـإن مسام القلب هناك مستحصفة وجرمه غليظ: فـلابد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفـذ فى الوريد الشـريانى إلى الرئة ليـثبت فى جرمـهـا ويخـالط الهـواء ويتـصفى ألطف مـافـيـه وينفـذ إلى الشـريان الوريدي ليـصل إلى التـجـويف الأيسـر من تجـويفي القلب وقـد خـالط الهـواء وصلح لأن يتولد منه الروح»(2).

والروح هنا يقـصـد بهـا اسـترواح الدم أى اختلاطه بالهواء وتنقيته ولاعلاقة لها بالروح حيـاة الإنسـان.وفي أوائل القرن السـابع عـشـر الميـلادى أعـاد(هارفي) نفس الكلام ونسب له



طبـيب عـربى يشـرح بعض الأعـراض والعـلامـات المرضـيـة

اكتشاف هذه الدورة.

وفى سنة 1920 أعـدّ طبـيب مـصـرى هو مـحـيي الدين التطاوى أطروحـتـه لنيل درجـة الدكـتوراه في جامعـة فرايبورغ بألمانية ودرس كـتـاب شرح التشريح لابن النفيس وأشار إلى هذا الاكتشاف ومنها عرف ابن النفيس وثبتت وإضـافـتـه هذه لتطور العلم ودراسـة الدورة الدموية بالإنسان.

وهكذادخل ابن النفيس إلى تاريخ العلم ومن أوسع أبوابه وقـد اعـتـرفت بـه وأشـارت له العـديد من الكتب المنهـجـيـة الطبـيـة وأيضـا موسوعات تاريخ الطب والموسوعات العالمية.

قـال ول ديورانت في كـتـابه الموسوعي قصـة الحضارة:.

«..شرح سرفـيـتـوس دورة الدم فى الرئتين سنة 1553 ولكن سبعين سنة أخرى انقضت قبل أن يأتى هارفى بوصفه الخطير لسـير الدم من



الدورتان الكبرى والصغرى حسب نظرية
ابن النفيس

القلب الى الرئتين وبالعكس وكان الطبيب العربى ابن النفيس قد سبق سرفيتوس عام 1285م الى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى وربما انحدرت الرؤية المتواترة بنظريته إلى إسبانية فى شباب سرفيتوس»(3).

وقال رينيه تاتون فى كتاب تاريخ العلوم العام:

لقد استلهم ابن النفيس الحل لمشكلة تنقية الدم بواسطة ملاحظات دقيقة، وإذا كان ابن النفيس قد اضطر الي التصريح بأنه لم يمارس التشريح الجراحي فإن كتاباته لاتدع مجالاً للشك بأنه قد قام بتجارب مباشرة ثم إنه من الناحية التشريحية قد قام باكتشاف لاينازعه أحد..»(4).

وحول موضوع مباشرة التشري لنا شهادة أخرى من الطبيب ليشتا نتيلر أستاذ تاريخ الطب في جامعتي لوزان وهامبورج والذى قال: لايمكن لأحد أن يصف هذا الوصف إلاّ اذا وضع إصبعه ضمن تجاويف القلب »(5)

وأرسل جورج سارتون رسالة إلى زميله المستشرق الطبيب مايرهوف بالقاهرة ليتأكد من حقيقة هذا الاكشاف وعندما وصله الرد بالإيجاب أشار إلى ذلك فى مؤلفه موسوعة تاريخ العلوم(6).

واختتم مابدأته بإشارة الموسوعة البريطانية:

توفى ابن النفيس سنة1288م وهو أول من وصف الدورة الدموية للدم حيث إنه قال إن الجدار بين البطينين الأيمن والأيسر مغلق وليس به ثقوب وبذلك خالف رأى جالينوس ونظريته القبائلة بأن الدم ينتقل من البطين الأيمن إلي الأيسر مباشرة، وقال ابن النفيس بصراحة إن الدم لكى ينتقل لابد أن يمر عبر الرئة ، ولكن اكتشافه بقي مطموساً إلى القرن العشرين(7).

واخيراً فإننا نرى أن ابن النفيس بتلك الكلمات استطاع أن يضيف نظرية جديدة إلى مسيرة العلم وقد قبلت بشكل أكيد إضافاته هذه التي جعلته في مصاف مشاهير العلماء فى العالم عبر كل العصور.

والسؤال الأخير هو إلى متي تبقى كتب ابن النفيس الأخرى سجينة المكتبات تغط في نوم عميق على الأرفف، لقد آن الأوان أن ننفض عنها الغبار ونعرضها للضوء والبحث والدراسة وربما وجد فيها العديد من الاكتشافات والنظريات الأخرى الطبية المثيرة.

■ ■

الهوامش والمراجع:

1ـ من مقدمة كتاب شرح تشريح القانون، تحقيق سلمان قطاية 1988

2ـ كتاب شرح تشريح القانون لابن النفيس، مرجع سابق

3ـ ديورانت ، ول: قصة الحضارة ،مجلد 27ص155

4ـ تاتون، رينيه: تاريخ العلوم العام، مجلد 1ص513 ترجمة علي مقلد1988

5ـ قطاية، سلمان: ابن النفيس .سلسلة أعلام الطب العربي، بيروت1984ص52

6ـ سارتون، جورج : مقدمة لتاريخ العلوم 1977ص48

7ـ الموسوعة البريطانية(مادة ابن النفيس).

صورة قديمة اندثرت :

حكاية

«بُوسَعْدِيَّة»

● علي الصادق حسنين

من الظواهر التي عرفتها البشرية منذ فجر التاريخ ـ ظاهرة التسول الذى كان يمارسه عندنا بصور شتى بعض الكبار والصغار من كلا الجنسين . إذ يستعطي المعوزون منهم والمحترفون أهل البر والاحسان مستعطفين إياهم بنبرات ونغمات متفاوتة ـ تصحبها في بعض الأحايين دقات البندير (أى الدّفّ) ـ ورافعين الأدعية أو منشدين منظومات لازلت أذكر منها الأبيات الآتية :

يالويله(تصغير للّه) آمباب (ادغام من وباب) الله

أتحجي بيت رسول الله

وتنشدان على طبقة القرار

لاأتكشي ولاآتنشي (مع ملاحظة النطق بإمالة الشين وتخفيف التشديد)

ولاآتقولى ماعندي شي

وراس وليدك مانمشي

لين تعطيني حق الله.

يامولاة الحوش جديد

حبلك مليان بالقدّيد

عمّر جادورك بولید

وطوّل عمره ان شاء الله

وليس من شك في أن بعض مظاهر حياتنا الاجتماعية قد شمل تلاشيها أو تغيرّها بعض الألوان« الفلولكورية » أيضا وذلك بحكم مايشهده العالم في هذا العصر من تحولات سريعة مذهلة في شتى المجالات.

هذا ولعل أبناء جيلي مابرحوا يذكرون ذاك المتسول المحترف المسمى «بوسعدية» الذى كثيرا ماكانت دقات« دنقته» ـ أى طبله ـ تستقطب الناس كبارا وصغارا فيتنادون ويلتفون حوله لمشاهدة رقصاته وحركاته المثيرة للضّحك قبل اختفائه مع مطلع خمسينيات هذا القرن .

ومن ذكريات طفولتي التى تجول فى خاطرى أحيانا شخصية هذا «المهرج» «البلياتشو» ـ إن صح التعبير ـ الذى كنت أخافه إذ كانت ترتعد فرائصي لدى تجواله فى حيّنا فكلما طرقت سمعي نقرات دنقته وصيحات صبية الحي «بوسعدية دانهْ دانهْ ياجرآى في الجبّانهْ بوسعدية طَق طَق ياوكّال في الطبق »كنت أسارع إلى إقفال باب بيتنا والاختباء تحت السرير.

إن بوسعدية معروف في الديار التونسية

أيضا وهو في العادة زنجي طويل القامة يرتدى سروالا طويلا وسترة خشنة ويتوشح شبه «تنورة» من الخيوط يتدلى من كل منها عظم كتفي غنمي بحيث تحدث قعقعة غريبة حين يمشي أو يرقص.

وتغطي رأسه شبه قلنسوة قُمّعية الشكل بأعلاها عرف من الريش وتزدان بالعقيق والودع وبمرايا صغيرة مستديرة ويتدلى من القلنسوة قناع على وجهه به منقار طير وله لحية مستعارة من وبر الإبل وشعر الخيل.

والدنقة هي الآلة الوحيدة التي يُطرب بها الناس إذ كان يقرعها بعصا قصيرة معقوفة يمسكها بإحدى يديه، إن هذه هي الصورة التي ظلت - منذ نعومة أظفارى - عالقة بذهني عن بوسعدية.

إلا أنه قد تهيأ لي الاطلاع - بالعدد رقم (1) لسنة 1932م. من المجلة TRTPOLI TANIA طرابلس الغرب» على مقال باللغة الايطالية كتبه الباحث توركواتو كوروتى TORQUATO CIROTTI وتناول فيه الموضوع نفسه معنونا إياه «بوسعدية: المهرج ...» ومستندا فيه إلى رواية شخص يسمى سعد بن الشيباني ويجد القارئ صورة من مخطوطة نص هذه الرواية ملحقة بهذا المقال.

وان كنت لا أتفق مع الباحث الإيطالى المذكور على كل ماذهب إليه أرتايت - تعميما للفائدة - أن أورد - فيما يلى - تعريبا لمقاله بتصرف طفيف:

« في السوق الطرابلسية التي أقيمت بمعرض كل من ميلانو وتورينو وجنوه ونابولي كان يظهر امام جمهور الزوار زنجي يرتدى ملابس غريبة تثير الضحك.

وسواء بسبب ملابسه الخرقاء المزدانة بأشياء تافهة أو بسبب رقصاته الشبيهة بقفزات القرود من المؤكد أن الحضور كانوا يستمتعون بمشاهدة هذا المهرج الذى لابد أنه كان يعكس صورة لوسط اجتماعى مجهول أو لطباع عنصر عرقي غير معروف . وفى الواقع أن بوسعدية ينطوى على شي من هذا وذاك . انما قد يكون من العبث البحث عن منشئه وعن سبب وجوده فى التقاليد الشعبية الخاصة بليبيا التي تستضيفه ذلك لأن الحكاية الوحيدة التي تتعلق به (والتي أشرت إليها آنفا) لم تأتنا بالخبر اليقين ولاعن هجرته الى البلاد الليبية، عن أصل هذا الشخص الهزلي الطرابلسي في حقيقة الأمر هكذا تروى - بوجه عام - حكاية بوسعدية وقد وقع اختيارنا على هذا النص لأنه يبدو - بالنسبة لأمثاله - ذا خاتمة مقبولة نوعا ما.

صحيح أنه ربما كان بوسعنا الاتصال بأحد الأهلين ممن هم أقل أمية واكثر إلماما باللغة العربية . ولكن عندئذ تصبح الحكاية - بعد تمريرها عبر غربال المنطق - ممسوخة مشوهة لأنها تفقد تلك البساطة التي يمكن على الدوام الاسترشاد بها في أثناء البحث . فبدون ذلك كان من الجائز أن يضيف الراوي إلى نصها عناصر أخرى من عنده.

ولنتحول الآن الى تحليل هذه الحكاية مسلطين الضوء على الثغرات ومواطن الاختلاف لكي نرى مايبقى موثوقا به منها ولكي نقف على الاستنتاجات التي يمكن في النهاية الخلوص اليها.

حكاية بوسعدية

بوسعدية هو رجل السود من بلاد السودان فلما [illegible] في وطنه
السفر الى بوطرابلس ان يعيش هو وزوجته وابنته السعدية ولكن في السفرة
[illegible] وتيه البدونه عن تحصل حرفة يشتغلون بها وصار [illegible] وهم
ان يحترفوا حرفة ابوسعدية شي كل من ينظرهم يضحك ويتعلقه
بين اهله ويقلسه بوحولهم بعض الشي من الدراهم او اكل ليحبشو بهم
فاراهم وخدمت الحرفة المذكوره ولبس بلدية جلد وجرنة وعصابه
كبيره وزيب من [illegible] وصابات ريش وعظام الحيوان
تخدمه ولكن في بجناح لبعض دراهم لياجل ليشد الجوارح المحشورات
ويمشي [illegible] فوجه [illegible] وهو خلو في [illegible] اسمه دار السعدية
لسعدية اخرج من زوبته بعض الشياه فباعهم واشترى منهم نصيب
عظام وخيوط وجلد وعصابه كبيره [illegible] وربط كل حكم
بخيط وخيوط العظام وضعهم في جزاده حتى صارت العظام تنوش في
[illegible] بيضا وشها لاصل الجلال وجعله فوق راسه طاقية من
جلد [illegible] من الصوف والمكات وجعله في الفه ثم طبل طبلة وجعله
في قفل [illegible] لشعر الابل وثوارت [illegible] الخيل حتى هي يلعب كل من
ينظره يضحك يطوف واكثر ملعوبه عن الشبان الصغار فصار
بالقوة منه جيف اما [illegible] الاطفال بكى وتشيطن في بينهم والزبدة
تخوفه بلبحي ابوسعدية فيسكت ويخاف وهذه اخذت العواجز الى
يومنا هذا البوسعدية لشي مظلمات ومطرب وهاجه الحرفة صاره
يشتغلون [illegible] بسبب السود بوسعدية الشحرة وفت [illegible] الى
الوطن لم يجد [illegible] صار [illegible] فيه البوسعدية الكوبه لقنه بسعد
وهذه حسب المسموعات على اصل البوسعدية
بوسعدية [illegible]

صورة لمخطوطة الرواية التى تتناول«بوسعدية» بالتعريف والوصف

إن الحكاية لاتشير - ولو بوجه التقريب - إلى أى عهد تعود هجرة بوسعدية من «السودان» (أى الاقطار الافريقية الواقعة إلي الجنوب من ليبيا سيما تشاد والنيجر ونيجيريا).

ولكن بما أنه حتى أكبر الطرابلسيين سنا يزعمون أنهم شاهدوه منذ طفولتهم وأنه كان يوصف لهم - منذئذ - بصورة مرعبة لتخويفم حتى يقلعوا عن البكاء واللعب، يجوز أن نستخلص من ذلك أن نشأة هذا المهرج ترجع إلى ثمانين سنة (أى منتصف القرن الماضى)على أقل تقدير. غير أننا لانملك دليلا يجيز لنا : إرجاعها إلى تاريخ أسبق بكثير منها ومهما يكن من أمر فلايمكن التسليم بأن زنجيا غريبا مصحوبا بزوجته وبنته كان يستطيع الاظطلاع برحلة من «بر العبيد» إلى طرابلس فى حقبة سابقة لمطلع هذا القرن وبدون أن يقع في شراك النخاسين أو سواهم من العشائر. وقد لايجوز التسليم حتي وإن قالت الحكاية إن بوسعدية كان يدين بالإسلام من قبل أن يباشر رحلته مع العلم بان النطق بالشهادتين ماكان يصلح كضمان لعبور القفار فى أمن وأمان من بأس تلك الربوع. وفي الحقيقة عندما اباد طوارق غات الحامية التركية سنة 1875م قد استثنوا العساكر السود فقط وذلك بقصد استرقاقهم (وقد كان الرق موجودا في ذلك الوقت) رغم انهم كانوا مسلمين. فما كان بوسعدية ليحظى بمصير أفضل في ديار من كانوا يعرفون بعرب فزان لأن هؤلاء القوم - إلى عهد قريب وحتى بعد إصدار الباب العالي فرمان إلغاء الرق - لم يظهروا انهم أقل مزاولة لتجارة العبيد من غيرهم.

وعليه ينبغي إدراج قصة نشأة بوسعدية في عداد الأساطير التي لاأساس لها من الصحة، بل يجب اعتبار نشأته بطرابلس، ذاك الركن المغاربي الذى كان دون سواه في ليبيا بوتقة اختلاق مهرج على هذا المستوى من التفاهة.

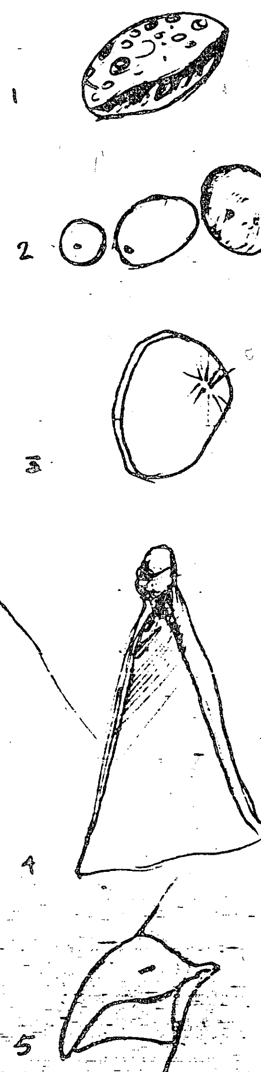
وبالاضافة الى ذلك يجب ألا يغيب عن الأذهان المرح الشوارعي الصاخب الذى كان يثيره هذا الزنجي في نفوس أهالي الثغر التجاري الطرابلسي والذى كان يتنافى مع طبع الليبيين المتسم بالتكتم والانغلاق علما بأنهم لايندفعون إلى الغناء والصدح بالترانيم أمام الجماهير إلا في المناسبات الدينية والأعراس العائلية.

هذاوإن زي بوسعدية أيضا يحملنا علي الاعتقاد بانه من اختراع هذه المدينة البحرية والآهلة بالأتراك المدججين بالسلاح وبالبحارة والتجار العادين المفرطين في الأكل والشراب والملذات والميالين الى فحش الفكاهة.

أما على صعيد الواقع فما هى شخصية بوسعدية إن لم تكن محض محاكاة ساخرة لمقاتل من القرون الوسطى ؟ فبدلا من الدرع الفولاذى يرتدى سترة من جلد الخروف، وتغطي رأسه شبه خوذة يزيد من بشاعتها استبدال مقدمتها بمايشبه قناعا عليه منقار نورس وله لحيه مستعارة مكونة من وبر الإبل وشعر الخيل فتبدو للناظر كأنها عثنون على الطريقة الإسبانية وإن قعقعة العظام المتدلية من حزامه تحاكي رنين الدرع.

فكيف يمكن إذن أن ينبثق مثل هذا التصور الهزلي عن عقل زنجي مسكين




1
2
3
4
5

ظاعن من متاهات « السودان » الى «بر طرابلس الغرب» في زمن - وإن كان لايزال يجول فيه محاربون من القرون الوسطى - لم يشاهد هؤلاء قط عبر منطقة بوملياتة؟!

أولم يكن بالأحرى الانكشاريون الاتراك هم الذين كانوا ينتحلون شخصية أحد العازفين الزنوج ممن كانوا يسلون محتسي « البوخة » في حانات الميناء مشنفين أسماعهم بضجيج «الدنقة» إلى درجة الإزعاج وعارضين رقصاتهم الالتوائية السخيفة لقاء«بارات» (جمع بارة التي كانت وما برحت اصغر وحدة نقدية تركية - المترجم) معدودة.

وقد لوحظت ثغرة أخرى في سياق تفسير التسمية «بوسعدية» أجل، صحيح أنه يعني «والد سعدية - أبا سعدية» ولكن يجب التفكير كذلك في أن سعدية هذه تكتسي أهمية أكبر من أهمية أبيها الذى يكتنف الغموض اسمه الحقيقي بينما كان اسمها معروفا تماما بحيث صار أبوها تابعا وهي متبوعة.

فمن المحتمل أن كان بوسعدية عند أول ظهوره مجرد مرافق لبنته المغنية الراقصة، ثم انفرد هو بمزاولة الحرفة.

إنما على هذا النحو فقط يمكن - في رأينا - تفسير ظاهرة نشوء شخصية هذا المسكين الذى لايدرك هو نفسه ماذا يمثل والذى لم يترك عبر الزمان أحدوثة ولادعابة ولانكتة حتي فى أضواء الروايات الشفهية.

ان كل ما يشكل هزلية هذه الشخصية شئ من التفاهة وعدم الأصالة بمكان بالنسبة الي الثلاثة « بوسعديات» القائمين حاليا بمدينة طرابلس.

هذا وفيما يقرع بوسعدية الدنقة ويرقص - على دقاتها - مترهلا يقترب الأطفال منه ضاحكين فيتظاهر هو فجأة بالانقضاض عليهم فيولون مدبرين خوفا من ضربات عصاه ، ولكنه لايتجرأ على ضربهم خشية أن يتعرض - إن تجرأ - لانتقام الآباء ، ومن يحضر هذا المشهد يضحك بملء شدقيه على ارتباك الأطفال أكثر من ضحكه علي الحركة الهجومية التي يتظاهر بها بوسعدية على سبيل المزاح. واذا ماضحك شخص أو نظر اليه - من باب الفضول - بسبب مظهره غير المألوف ، يقوم بوسعدية بالرقص حوالي هذا الفضولي إلى أن يجود عليه بإحسان أو يغض الطرف عنه.

وبالعكس إذا ما أحسن إليه ورمى قطعة نقدية معدنية أمامه على الأرض يخرج بوسعدية - على الفور - من تحت سترته عصا، ربط بين طرفيها حبل رفيع كوتر القوس ثم يتظاهر بتصويب سهم خيالي على تلك القطعة النقدية فيصيبها بالعصا كأنه يريد أن يقضي فيها على عدو جريح ملقى على الأرض متأثرا برمية السهم الذى أطلقه عليه. وبعد ذلك يتظاهر بالتقاط الفريسة ممسكا إياها فيما بين إبهام وسبابة يمناه ، فيرفع ذراعه وهو جات ومنحني الرأس إلى الوراء ثم يسقط القطعة المذكورة في فيه موهما جمهور الحاضرين أنه ابتلعها.

ونظرا إلى البراعة التي يظهرها بوسعدية أحيانا في قرع الدنقة تتهيأ له - بين الفينة والأخرى - فرصة العمل في الأفراح الأهلية ، إلا أن وفرة كسب. تتحقق من وراء تجواله في أزقة طرابلس إذ يعرض رقصاته ووثباته









القردية المضحكة لاسيما حينما تصل إلى المدينة أفواج السياح الذين يجدون نوعا من التسلية في مشاهدة حركات وألعاب هذا المهرج الأخرق الزى يبدو كأنه يعبر برقصاته عن التناقضات المتجددة بين غطرسة الانسان وضراوة الحيوان...



جذور تراثية

في الأدب الساخر عند علي مصطفى المصراتي

● د .الصيد أبوديب

الكتابة عن أديبنا الكبير الأستاذ علي مصطفي المصراتي تبتعد كثيراً عن أدبه إذا ماأغفلت الاتجاه الساخر في هذا الأدب ولاتمثل شخصيته إذا ماأردنا الاقتراب من طبيعة هذه الشخصية والوقوف علي أبرز صفاتها الاجتماعية وأوضح سماتها الفنية لذا يكون الحديث عن هذا الجانب مطلبا ملحا وضرورة واجبة فالذين يعرفون الأستاذ المصراتي عن قرب ويحتلون مقعداً في مجلسه يدركون جيداً هذه الخصيصة ويقفون علي سمة الظرف والفكاهة في أسلوبه وكثيراً ماترسم الابتسامات علي الشفاه بل وترتفع الضحكات بين المتحدثين معه والمتحلقين حوله لما تتسم به هذه الشخصية من ميل إلى الفكاهة والدعابة وماتعكسه من روح مرحة ساخرة.

ولايقتصر هذا الجانب أو هذه السمة التي عرف بها الأستاذ المصراتي علي أحاديثه ومسامراته بين عشاق مجلسه ومايأتي عفو الخاطر في تعليقاته وإنما يبدو جليا واضحاً في كتاباته ومقالاته مشكلا ظاهرة أدبية يتميز بها عن غيره من الأدباء والكتاب وينفرد بها في أسلوبه وأدبه.

وقبل أن نقدم نماذج من هذا الاتجاه الساخر وملامح من هذا الأدب الفكه نرى لزاما علينا أن نعدد العوامل التي شكلت هذا الاتجاه وعملت علي تكوينه في أدب الأستاذ المصراتي وتميزه وبروزه بين ألوان الكتابة التي مارسها.

وبحثا عن هذه العوامل سنجد من بينها النشأة الأولى التي نشأها الأستاذ المصراتي فقد شب علي حب الدعابة والسخرية متأثراً في ذلك بأبيه الذي كان - كما يذكر المصراتي (1) نفسه - يجيد صنع النكتة ورواية الفكاهة.

وتأتي البيئة المصرية التى ولد بها وعاش فيها ردحا من الزمن في مقدمة هذه العوامل ولايغرب علي البال ماللشعب المصري من روح مرحة متميزة فالمصري كثير المزاح مجيد للنكتة محب للدعابة يهوى الفكاهة وتجنح طبيعته لخلق الابتسامة علي الشفاه وعن نشأته في هذه البيئة يحدثنا الأستاذ المصراتي (2) عن حي بولاق أحد الأحياء الشعبية القديمة في القاهرة الذي عاش فيه فترة طفولته وقضي مرحلة شبابه بين أزقته وجدرانه ، يقول إنه في مقاهي هذا الحي وما أكثرها يجتمع صناع النكتة ويأتي إليها رواة الفكاهة لتزجية وقت فراغهم

والاستعلاء علي مصاعب الحياة وقتامة الواقع وضيق العيش.

ويمكننا أن نضيف إلى هذين العاملين قراءاته المبكرة للتراث العربي واطلاعه علي أمهات كتب الأدب تأتي في مقدمتها تلك التي ضمت بين صفحاتها نوادر وفكاهات وملحا ، مثل كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) للأبشيهي و(محاضرات الأدباء) للعماد الأصفهاني و(أخبار الحمقي والمغفلين) لابن الجوزي و(البخلاء) للجاحظ ،وغيرها من الكتب التي اهتمت بأدب الفكاهة والسخرية كما لاننسي قراءاته لنتاج أعلام الأدب الساخر في العصر الحديث من أمثال عبد العزيز البشري وإبراهيم عبد القادر المازني اللذين اشتهرا بكتاباتهما الساخرة .

في حديثه عن روافد ثقافته يذكر الأستاذ المصراتي(3)أنه قرأ وهو في مصر لأبرز المفكرين والأدباء والكتاب الأعلام المحدثين كان من بينهم عبد العزيز البشري الذي يعد من صناع النكتة ورواتها البارزين وإبراهيم عبدالقادر المازني الذي يعتبر من أشهر كتاب الأدب الساخر في مصر . ومن ثم لايمكن للدارس أو الباحث أن يستبعد أثر هذين الأديبين في كتابات الأستاذ المصراتي الساخرة وأسلوبه الفكه وفي مواقفه الحافلة بالدعابة والهزْل ، كما لايمكنه أن يستبعد أثر قراءاته الخاصة وشغفه في بداية حياته الثقافية بكتب الأدب العربي القديم تأتي في مقدمتها كتب الجاحظ ،فهذه القراءات شكلت - بدون شك -أحد الروافد الهامة في تكوين ثقافته وتلوين كتاباته بالأسلوب الساخر.

يقولون إن الذي يقدر علي السخرية ويوفيها حقها هو «الشخص المرح ، الفكه ، المجلس ، الحلو الحديث ، البارع التصوير، السريع ، الملاحظة ، الرقيق المقارنة ، الحاضر البديهة ، فيتخير اللفظ الموجز والأسلوب السهل والكلمات المعبرة ويتعمد إلى التعريض والتلويح والكناية والرمز واللفتة والإشارة»(4)

وهذه صفات لايعدمها الأستاذ المصراتي فشخصيته تنطق بها وأحاديثه تؤكدها كما تعكسها تعليقاته في مجالسه وحلقاته وتبرزها مقالاته وكتاباته التي يبدو واضحا من خلالها أنه كان يضع في الاعتبار العلاقة بينه وبين المتلقي ويحرص -حين يكتب- علي أن تدوم هذه العلاقة طوال قراءة القارئ لتلك المقالات والكتابات فهو يروح عن نفس من يقرأ له ويخرج به من جد إلى هزل حين يتخوف ملله ومسآمته ويشعر بفتور تلك العلاقة التي تربطه بالقارئ ولعل هذا مايفسر لنا حقيقة اختياره عنوان (جد في هزل ، وخيال في حقيقة) لسلسلة مقالاته التي كان ينشرها بجريدة (طرابلس الغرب) في مطلع الخمسينيات .

وإذا أردنا أن نحدد بدايات هذا الاتجاه الساخر في أدب الأستاذ علي مصطفى المصراتي فسنجد أنها ترتبط بانطلاقته الأدبية في الصحافة الليبية علي أثر عودته الأخيرة إلى ليبيا عام 1950 حيث بدأ ينشر مقالاته المتنوعة في جرائد وصحف تلك الفترة مثل (شعلة الحرية والأخبار وطرابلس الغرب) ومجلة (هنا طرابلس الغرب) التي تولي رئاسة تحريرها عام 1954 لمدة سنة واحدة

فإلى جانب مقالاته السياسية التي كان ينشرها في جريدة (شعلة الحرية) وخواطره الأدبية التي كان يكتبها تحت عنوان(قطرات من يراع) احتلت المقالة الاجتماعية والخاطرة النقدية العامة جزءا لابأس به من مساحة كتاباته في هذه الصحف تناول فيها بعض القضايا الاجتماعية بالتعليق النقدي وتسجيل الملاحظات العامة ، جاءت تحت عنوان (صور من المجتمع) وقراءة لعناوين بعض هذه المقالات تكشف عن ملامح مبكرة لأدب الأستاذ المصراتى الساخر وعن كتاباته ذات الأسلوب الفكه المتميز مثل مقالته (اللئيم) و(الصعلوك) و(المغفل) ،كذلك عناوين مقالات الأبواب الصحفية التي كان يكتبها في جريدة (طرابلس الغرب)مثل (همزات وغمزات ، ملاحظاتي ، ملامح في سطور).

أشرنا فيما سبق إلى أن الأستاذ المصراتي حين يتحدث كثيراً ماكان يلون هذا الحديث بطرفة أو دعابة وأنه حين يكتب كثيراً ماكان يجنح في هذه الكتابة الي السخرية يزوق بها مقالته ويطعمها بمفارقات تبعث علي الضحك الذي يبدو للوهلة الأولى ضحكا مفرغا من محتواه لايقصد به غاية ولايرمي من ورائه هدفا ولكن إن نظرت إليه وأمعنت في النظر اكتشفت أن قوام هذا الضحك ،البكاء الصامت والنقد الاجتماعي المرّ . فأنت تضحك حتي تشرق بالدموع وحين تأخذ في مسح هذه الدموع تتبين أنك تبكي وأن بكاءك قد أيقظه الضحك ، ومع جدلية الضحك والبكاء التي وضعك فيها الأستاذ المصراتى ترفض أمورا كثيرة وتقف علي عدة أشياء كانت غائبة عنك ولم تفطن إليها في بادئ الأمر.

في ضوء هذه المفارقة يتحقق الأدب الساخر عند الأستاذ المصراتى علي أنه «ليس نوعا أدبيا محايدا يسعى إلى انتزاع الضحك أو التهوين من شأن الذات ،إنما هو شكل أدبي مقاوم ، إذ لاتكون الضحية فيه غارقة في روعها ومستسلمة لأوامر الجلاد، بل ترد علي الجلاد وأدوات قمعه بسخرية شاملة (5) وماهذا الجلاد إلا واقع المجتمع الليبي المتخلف المتردي الذي كان يقف في الخمسينيات سدا منيعا يحول دون تطور أسباب الحياة وانتعاش الناس وتحسن ظروفهم ، وهاكم الدليل...

يقول الأستاذ المصراتي في مقال له بعنوان (فنجان قهوة بسرعة) مصورا نتيجة من نتائج التربية الخاطئة في تلك الفترة المبكرة من حياة المجتمع الليبي الحديث بعد زيارة قام بها إلى صديق له ، حلَّ بيته ضيفا عليه:

وجاء ابنه ، فما إن رآه حتى بصق علي وجهه غير الكريم ، وتناثرت علي وجهي شظايا من بصاقه ، وأخذ يشتمه بابن الكلب، حمار ، خنزير ، لماذا لم تغسل وجهك حتي يراك الضيف نظيفاً ؟ ألم اشتر لكم في الأسبوع الماضي قطعة صابون ؟ وحاول الولد أن يرد شتائم أبيه بأحسن منها أو أقبح منها ، ولكنه استلمه وأخذ يضربه والولد الشقي يرفس برجليه ويديه وأنا أحول بينهما ...ثم ذهب الولد بعد أن أخرج لسانه لأبيه وضربه بالحذاء(6)

إن الصورة التهكمية لهذه اللقطة

الاجتماعية واضحة الدلالة فمحاولة تربية الأب لابنه في حضور الأستاذ المصراتي الضيف !!لم تتم بطريقة تربوية سليمة، وإنما كانت أدواتها السب والشتم وسوء المعاملة ، فكانت النتيجة ورد فعل الابن علي نقيض ماأراد الأب تحقيقه حيث عمقت سوء التربية في سلوك الابن ٠

وفي مقال له بعنوان (في سبيل الصراحة) يجمع الأستاذ المصراتى أيضاً بين الإضحاك وإدخال السرور علي نفس القارئ وإشاعة جو المرح والبهجة وبين نقد بعض العيوب الاجتماعية مثل كراهية الناس للصراحة ونفورهم من سماع كلمة حق. يقول الأستاذ المصراتي ، منتقدا بعض أدعياء نظم الشعر ، مصورا ردود الفعل على سماع أحدهم وجهة نظر في شعره قيلت له في صراحة تامة :

وقابلني صديقنا المتحذلق الذى حفظ أسماء من الكتب وعناوين من الموضوعات أو المواضيع فراح يتشدق ويردد كلمات محفوظة وعبارات مطبوعة وزعم أن ملكة الخيال توجته و عشقته٠٠٠وأخذ يسمعني قصيدته ٠٠٠استغفر الله قرقعته ، فقلت هذا هراء ليس فيه خيال يشيع ولا أسلوب يروى وأنت ياصاحبي مازلت في حاجة إلى الاطلاع والحفظ حتي تصقل ملكتك ٠٠٠٠فنظر إلى ومزق الورقة واسمعني خطبة في عيوبي وسلسلة أجدادي حتي كاد أن يصل إلى سيدنا نوح (7)

ينتقد الأستاذ المصراتي هنا بعض أدعياء الأب والمتطفلين علي مائدة الشعر في أسلوب ساخر ، مصورا ماحدث له مع أحد هؤلاء المتطفلين حيث قدم إليه نصيحة تصحح مساره وتقوي عضده في رحلته في عالم الشعرالرحيب ، ولكن النتيجة كانت السب والشتم واللعنة له ولسلسلة آبائه وأجداده٠

وتتوالي الصور التهكمية في مقالاته وتتباين أنواعها وتتعدد ملامحها،وإذا كنا قد أشرنا إلى مفهوم السخرية عند الأستاذ المصراتي في ضوء مالمسناه في شخصيته وماتبيناه في تكوينه الثقافي فإن هذا المفهوم يتضح جليا في لغة تلك المقالات والأسلوب الذي كتبت به٠ و لسنا بصدد بيان المدلول اللغوي للسخرية في المعاجم أوالقواميس لكي نحدد قرب الأستاذ المصراتي من هذا المدلول وبعده٠ ولكننا نكتفي بالإشارة إلى المدلول المباشر لهذه الكلمة المقرون بمعني الهزء والضحك ، مشيرين إلى مرادفاتها في العربية وهي التهكم والتندر واللذع ، لافتين النظر إلى معانيها مثل الهزل والمزاح والفكاهة والهجاء والضحك والدعابة والظَرف٠

فهذه المرادفات والمعاني يبرز من بينها معنى الضحك الذي يقترن بالسخرية «كمصطلح توأم يعبرعنهاوتعبرعنه»(8)ويتبين القارئ بوضوح أنها مقصودة في كتابات الأستاذ المصراتي ولكن لاتستهدف معني النيل من الآخرين لتحقيق أهداف متعددة منها الإساءة والتشفي وإظهار التفوق ٠٠٠(إنها ترمي في الأغلب الأعم إلى)التخلص من ظروف قاهرة والاستخفاف والاستهانة وعدم الإكثرات وهي بالتالي وسيلة تحرر من القسر والألم ،وسيلة تعويض كما هي أسلوب

لرفع الأذي وأسلوب تفريغ الطاقة »(9)أما عن أدواتها عند الأستاذ المصراتي فهي تتعدد «بتعدد المواقف والأحوال والأسباب ، فهناك مضحك الأشكال ومضحك الحركات ومضحك الظروف ومضحك الكلمات ومضحك الطباع»(10) .

وسخرية الأستاذ المصراتي في أدبه لاتخرج عن هذه الأهداف والغايات ولاتنأي كثيرا عن تعدد أدواتها وتنوع مضحكاتها فالصور التهكمية في كتاباته تتعدد وتتباين بشكل ملحوظ فهاهو ذايلتقط في مقال له بعنوان (ديك عمي سليمان) مشية أحد الشيوخ الذين يرتدون الزي الأزهري وجد فيها خيلاء وتبخترا وغرورا فقدمها لنا في صورة سافرة لطيفة تبعث علي الإضحاك ،يقول الأستاذ المصراتي :«وقفز الديك من النافذة ونط برشاقته وخفته كأنه (براشوط) واستقر فوق عمامة شيخ كان يسير سيرا متبخترا في جبته معجبا بهيئته وهلع الشيخ المتوقر الأنيق من هذه الصاعقة التي صبت فوق رأسه وأنقضت علي عاتقه وظنها كسفا من السماء وخاصة عندما تدلى شال عمامته علي عينيه والتوي علي عنقه،ظن الساعة قائمة ومادت الارض وخاف الشيخ المتوقر كما يخاف الطفل»(11)

بهذه الصور التهكمية والأسلوب الساخر لانستبعد تأثر الأستاذ المصراتي برائد الاتجاه الساخر في الأدب العباسي وأديب العربية الكبير أبي عثمان الجاحظ الذي «اشتهر بالسخرية في عصره وبقيت سخرياته تبدد اليأس عن النفس وتجلب الفرح على القلب حتي اليوم ومابعده ، وزخرت كتبه ورسائله بالروح الفكهة حتي صار إماما في هذا الفن بل وفي فن الكتابة» (12)

لقد شارك الجاحظ الأديب الساخر كتاب العربية في العصر العباسي الثانى في جعل أثواب المعاني فضفاضة ذات ذيول وأكثر معهم من المفردات والجمل علي سبيل الترادف والازدواج حتي صار حامل لواء هذه الطريقة وقد مكنّه من ذلك سعة ثقافته وتبحره في علوم عدة برز فيها فكان عالما وفيلسوفا وأديباً وكاتباً (13)

ولسنا هنا بصدد عقد مقارنة بين الأستاذ المصراتي الأديب الساخر وبين الجاحظ أديب العربية الكبير أو البحث عما وقف عليه من أدبه وأخذ عنه من خصائص فنية صبغت كتاباته بألوان من السخرية منحتها نكهة طيبة ومذاقا حلوا إنماأردنا الإشارة إلى أن ماقيل عن الجاحظ في جوانب أدبه الساخر يصدق في بعضه علي أديبناالأستاذ المصراتي فالجاحظ كان واسع الاطلاع« لطيف البحث ، طيب الفكاهة، مخترعا لرقيق المعاني ، صواغا لبليغ العبارات،صادراً عن نفس جامعة بين المتناقضات »(14) إذ كانت للجاحظ «المقدرة علي المزاوجة والترادف وإتباع الشئ بمثله والقرين بقرينه في فقرات يغلب أن تكون قصيرات حتي ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة »(15) فإن للمصراتي نصيبا كبيرا من هذه المقدرة فهو كثيرا مايحسن المزاوجة والترادف ويجيد صنع المواقف الساخرة ويكتب عن طبع ويسترسل فيسوق الأحاديث ويبدع الصور في أسلوب عذب مستملح وكثيرا مايطنب ماشاء له الإطناب وينوع العبارات في المعني الواحد كلما

ساعدته القريحة وجرى القلم بما أراد أن يقول ورغب في تصويره ،يتضح ذلك في كثير من مقالاته ذات الاتجاه الساخر وبعض قصصه التي آثر تلوينها بشئ من روحه الفكهة .

كتب المصراتي يصف جلسة له في أحد المقاهي مع رجل كان يحمل كيسا من الفلفل الأحمر ويصور ماسببه غبار هذا الفلفل له ولصاحب الكيس حيث يقول :

«وكلما لاطمت رجلاي شكارة الفلفل الأحمر ارتفع غباره... فكحكحنا وعطسنا وشهقنا ونفنفنا وسالت مدامعنا .... أف ، أف ...كح...كح...كح...إيه،إيه »(16)

وهناك وجه آخر من وجوه اقتراب المصراتي من أديب العربية الجاحظ فقد اشتهر عنه أنه صدر في سخريته-وكذلك فعل الأديب الساخر إبراهيم عبدالقادر المازني -عما في خلقته من دمامة وقبح هيئة وعيوب جسمية.

يروي الجاحظ عن نفسه ، مشيرا إلى قصر قامته :«ما أخجلني أحد مثل امرأتين رأيت إحداهما في المعسكر وكانت طويلة القامة وكنت علي طعام فأردت أن أمازحها فقلت :انزلي كلي معنا، قالت : اصعد أنت حتي تري الدنيا.وأما الأخري فإنها أتتني وأنا علي باب داري . فقالت لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي فقالت له : مثل هذا ، وأنصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إلى بفصّ وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان فقلت :ياستي مارأيت الشيطان ، فأتت بك وقالت ماسمعت »(17)

وفي الأدب الحديث اشتهر أيضا الأديب إبراهيم عبدالقادر المازني بوصف عيوبه الجسمية كتب يصور قصره حين وصف سلام الناس علي الأمير في الحجاز :

«وقف الأمير ....مقدما أنفه لمن شاء ومتلقيا قُبل المهنئين ولثمات الداعين فلما جاء دورنا وددت لو كان أمامي كرسي إذن لقفزت أنا أيضا بتقبيل أنفه ولجربت ذلك وعرفت سببه وتقصيت سره»(18) فقصر المازني يستوجب كرسياً يقف عليه حتي يتمكن من تقبيل أنف الأمير علي عادة أهل الحجاز .

إن مثل هذه النماذج من التجسيم في الصفات والصور لانعدمها عند الأستاذ المصراتي الذي سخر هو الآخر من نفسه أو مما كان يعتقد أنه عيب في هيئته وقوامه ومظهره ففي مقال له بعنوان (طربوش ياأولاد الحلال) يصف حجم رأسه الضئيل بقوله :

«وهنا اسمح لي أن أتكلم عن رأسي وأتحدث معك شوية فهي رأس عزيزة كريمة -علي طبعا- وأنا لاأملك سواها ، وهي رأس مكورة مسطحة من فوق مثل (سليطة غريان)أو (درنة) ولكنها مع الأسف صغيرة جدا أشبه شئ برأس القرد وإذا وازنت حجم رأسي برأس القرد أكاد أصدق نظرية (دارون) من ناحية ولكن أكذبها من نواحٍ عدة .أجلك الله رأس القرد أكبر من رأسي أو هي أشبه بجوزة الهند . ويظهر أن والدتي فزعت من أهوال الحرب العالمية الأولي فجاءت خلقتي ورأسي هكذا ملخبطة علي طراز ارتجالي غريب »(19)

ومن هذه الصور الساخرة الضاحكة التي رسمها الأستاذ المصراتي لنفسه أيضا ماجاء في مقال له بعنوان (في سبيل الشعر)

يقول فيه :

«وذهبت بعـــمـــامـــتي رحم الله أيام العمامة-ولاأطيل الحديث ولكن تصور المنظر: شاب بعمامته وسط أفخاذ ملساء وسيقان مجردة ملفاة ونهود مدلاة وضحكات متناثرة وقهقهات عالية وشفاه حمر مغرية فأول مرة أشـــاهد هذا فكأنني بدوري من جـــوف الصـــحـــراء ألقي به في هوليـــود أو باريس وقـالوا له : تفرج ياشيخ العـرب .. وهرب فكرى وهرب شعوري وشعـري وهرب دمي من عروقي كالتـيـار الكهربائي عندما يهرب من الأسـلاك ، وبقـيت في ظلمـة وربكة وجف ريقي وجحظت عيناي وأحاطت بي الفتيات العـاريات (بالمايوه) وظنوني (وظنّني) الشيـخ (أبوالعيون) الصغير وأخذن يتفرجن عليّ كما تتفرج الفاتنات علي جحش غير تائه ، فقد جئت أتفرج واستوحي عرائس الشعر ، فإذا بى فرجة من الفرج» (20)

من الواضح أن الأستاذ المصراتي زاوج في لغة مقالاته الساخرة بين الفصحي والعامية فهو وإن حرص علي استعمال اللفظ الفصيح المسكون بالدعابة الملئ بالسخرية فإنه كثيرا مايستخدم اللفظ العامي الذي يكشف عن الموقف السـاخـر ويصـور الحدث في دلالة بليغة ، خاصة في مقالاته التي يسخر فيها من الآخرين أو من نفسه كما رأينا .

تلخص د.نعمات أحمد فؤاد أوجه الاتفاق بين الجاحظ والمازني في البسـاطة والواقعيـة والصدق في التعبيـر وفي ظاهرة الاستطراد ورسم صورة واضحة الخطوط للعصر الذي عاشا فيه وفي الطبيعة الفنية والمحصول الوافر من ألفـاظ اللغـة والخيـال الخصب وتقـصي الخوالج النفسية والأسلوب المتفكه الساخر الضاحك (21)

وفي اعتـقـادنا أن الأستـاذ المصراتي يلتقي معهما في كثير من هذه الأوجه ، ويمكن القول إن الخلاف بين سخريته وسخرية الجاحظ والمازني خلاف بيئة وعصر وعناصر ثقافة لأن السـخـرية عنده بعـامـة قـائمـة علي مـاتسمـيـه د. نعـمات أحمد فـؤاد بالملاحظة المنتخبة ، فهو مثلهما يلاحظ كل شئ أو مـعظم مـاتقع عليـه عـيناه ، وينتـخب منه مايصلح مدارا للسخرية (22)

في هذا الإطار يقدم لنا الأستـاذ المصراتي صورة أخري من صور التجسيم ولكنها هذه المرة لبطل مـقاله الذي جاء بعنوان (بلغـة الحـاج قـدور) الذي وصف طبـعـه وقـصـره في بساطة وواقعيـة وبأسلوب فكه ساخر ، حيث يقول إنه رجل « خفيف الظل ، سريع الغضب ، سريع الثورة ، يغضب من ذبابة تعاكس أنفه ، ويلعن ويثور ، قصير يتدحرج كأنه دمية عيد الميلاد ، إلا أنه قصير غير مكبر »(23) .

وإذا كـان لابد من وقـفـة أخرى مع مـقـالات الأستـاذ المصراتي ذات الاتجاه السـاخـر ، فـإنّ هذه الوقـفـة أصدق مـاتكون مع سلسلة مقـالاته التي سرد فيها طائفة من الأقاصيص والحكايات نشـرت تحت عنوان (جـد في هزل وخـيـال في حقيقة) ، توخي فى صياغتها الأسوب الفكه ، فكانت بحق مع غيـرها من الكتابات السـاخرة النمـوذج الواضح الذي يمثل هذا الاتجـاه أصـدق تمثـيل . لقد حملت كل مقالة من هذه المقالات عنوانا خـاصـا بهـا ، بدأها بمقـال عنوانه (في سبيل المسكن أو البحث عن برميل) نقتطف منه الفقرة التالية:

«عطف عليّ أحد العمال وأعطاني دارا في حى ممتلئ بالخمور والفجور فصرت أتلصص في الدخول إليه ، لأن هذا موضع ريبة وموطن تهمة ، والرسول يقول : اتقوا مواطن الشبهات ، فلا أدخله إلاّ في الهزيع الأخير من الليل كأني قط أو موسى عندما دخل المدينة علي حين غفلة من أهلها يتوجس . ورضيت بهذا كله رغم أن الدار فوق السطوح ضيقة ، تصلح أن تكون عشة دجاج أو محبس عنتر أو حجرة أرنب أو مرتع فئران ، ولكني حشرت نفسي وكتبي وحقائبي ومخطوطاتي ، وحمدت الله لذي لايحمد علي مكروه سواه ....

وهطلت الأمطار وتزايدت فحمدت الله وقلت : اللهم زد وبارك اللهم آتنا بالغيث يامطر زيدي ، اللهم اكثر الشبوب ، ومع أني لست وليا ولارجلا صالحا وليس صدر مرابط ، ولكن يظهر أن أبواب العرش كانت مفتوحة وأن الملائكة حملت دعائى بسرعة البرق واستجاب الله لدعائى في الحال والحين . وهطلت الأمطار وتزايدت وتزعزعت أركان الدار وكنت أحسب للدار سقفا فإذا به غربال أو (كسكاس) ، ففي أيام الصحو تبدو منه النجوم والسحب والغيوم . وأشاهد منه صراع الليل والنهار علي مسرح الأفق» (24)

وتبقي جملة من الملاحظات تتعلق بالأستاذ المصراتي الأديب الساخر ، فبقدر ماعكست مقالاته وكتاباته ذات الاتجاه الساخر روحه المرحة وميله إلى الفكاهة والإضحاك ، بقدر ماترجمت بعض مواقفه مع الآخرين وأحاديثه معهم في مجالسه ولقاءاته تطرفه في سخريته وقسوة دلالاتها مع غيره . وهذا الأديب التونسي أبوالقاسم محمد كرو يسجل عنه الملاحظة التالية حيث يقول :« «والمصراتي في مطلع كهولته ، لكنك اذا رأيته وجلست إليه وتحدثت معه وماشيت خطاه في الطريق ، رأيت شابا ذا جسم نحيل وروح مرحة وضحكة رنانة وبشاشة دائمة ونكتة سريعة عنيفة أو لاذعة» (25) .

وحين يشير الأديب والكاتب المصري المعروف أنيس منصور إلى نشأة الأستاذ المصراتي في مصر ، وفي بولاق علي وجه لتحديد ، ويذكر أن هذه النشأة تبدو في «روحه المرحة وسخريته الحادة ولسانه السليط وذاكرته المتربصة بكل الناس .. ثق أنه أرشيف من الحوادث والنوادر والقضايا لكل الناس ، كأنه في حالة استعداد للدخول في أية معركة أو أية قضية» (26) .

فعلاً ينطلق الأستاذ المصراتي -في بعض الأحيان - إلى أبعد حدود الانطلاق في سخريته في الألفاظ والمعاني ذات الدلالات الساخرة ، ولكن ذلك يكون إما تعبيرا عن رد فعل لموقف عدائي نحو شخصه ،كثيرا مايأتي ابن اللحظة أو وليد مخزون في الذاكرة وحانت الفرصة للتعبير عنه ، وإما وسيلة للتسلية التي يفضلها البعض منه وتجد في نفسه هوي .

وما يمكن أن نلاحظه أيضاً علي كتابات الأستاذ المصراتي الساخرة ، ندرة استعمالاته التي يذكر فيها المعنى المخالف تماما لما يقوله الشخص كأن يدعي الأحمق بأنه ذكى جداً ، وهو من أدق معاني السخرية التي أشارت إليها بعض القواميس الأجنبية ، مثل قواميس اللغة الانجليزية (27) .

كذلك ينعدم في هذه الكتابات ، ذلك النوع الذي «ينشأ عن المفارقات بصرية كانت أو سمعية ، وإدراك التنافر وعدم الإنسجام ، وإذا

اضيف إلى عنصر التنافر أو المفارقات ، عنصر المبالغة أو التهويل لم يلبث أن يخرج بنا الموقف إلى عالم الاستحالة أو اللاواقعية . وبذلك تحتل المفارقات -خاصة ذات الصلة الوثيقة بالاستحالة - مكانة كبري في عالم السخرية والفكاهة »(28) .

وإن كنا نلمس في كتابات الأستاذ المصراتي ذلك النوع من الفكاهة التي «لاتتوقف علي الموقف وحده ، وانما تتوقف علي نظرة الإنسان إلى الأمور وفهمه وتقويمه لها . وتبلغ الفكاهة ذروتها حين يصل التناقض حدا يصعب معه أو يستحيل التوفيق بين الصورة الذهنية والأمر الواقع »(29) .

ولتوضيح هذا الجانب نشير إلى أن علماء النفس يقسمون ضروب الهزل إلى ثلاثة أنواع هى:الفكاهة والنكتة والكوميديا ، ويقولون إن «هذه الأنواع الثلاثة تقابل فى حياتنا النفسية على التعاقب:الوجدان والنزوع والإدراك ، والكوميديا هي -من بين ضروب الهزل جميعا - أقربها إلى قطب الإدراك أو العرفان أو المنطق ، وهى بالتالي فن عقلي يقوم كغيره من الفنون علي النشاط الإبداعي »(30) .

في ضوء هذا التقسيم يمكننا أن نقول إن الأستاذ المصراتي قد حقق من ضروب الهزل في كتاباته الساخرة نوعين من أنواعه الثلاثة وهما الفكاهة والنكتة في حين خلت هذه الكتابات من النوع الثالث ألا وهو الكوميديا باعتبارها أثرا فنيا له خصائصه وسماته التي تختلف بها عن غيرها من ضروب الهزل . وقد عّرف الأثر الفني في حالة الكوميديا بأنه « تصوير لمثالب الناس وعيوبهم ونقائصهم ومظاهرضعفهم في إطار فني ينطوي علي انسجام معكوس »(31) .

وفي نظرنا أن الأديب الساخر قد يقترب من فن الكوميديا حين يعمد إلى تصوير مثالب الناس ويرصد عيوبهم ويلتقط نقائصهم ويسجل مظاهر ضعفهم وتأخرهم ، ولكنه يظل بمنأى عن هذا الضرب من الهزل مالم يصب تصويره في قالب فني ، ذلك أن الكوميديا «هي فلسفة الضحك التي تسمو بالهزلي من المستوي العامي المبتذل إلى مستوي جمالي فني إنساني »(32) .

وبعد . . .

فهذه ورقات حاولنا أن نقف من خلالها علي ظاهرة بارزة تشكل في أدب الأديب على مصطفى المصراتي اتجاها فنيا واضح الملامح ، فضلا عن رصد جملة العناصر التي صاغته والعوامل المكونة له ، مع الكشف عن بعض دلالات هذا الاتجاه ، وطبيعته بما يحقق الاقتراب من شخصية الأستاذ المصراتي الأديب الساخر غير مدعين أن وقوفنا أمام هذه الظاهرة كان قريبا جدا منها .



الهوامش المراجع :

1) من لقاء شخصي مع الأستاذ المصراتي للباحث الحازمي مصباح محمد بتاريخ 1994/9/23 /انظر (فن المقالة عند المصراتي) رسالة ماجستير مخطوطة . كلية اللغات ، 1996 ، ص 144.

2)نجم الدين الكيب ، علي مصطفي المصراتي الباحث الأديب ، ص 100/99

3)مجلة الفصول الأربعة ، العدد 58 ، ص 21 انظر ايضا :نجم الدين الكيب ، ص 102

4)عبد الحليم محمد حسين ، الجاحظ الأديب الساخر ، ص 25

5)د.ياسين أحمد فاعور ، السخرية في أدب أميل حبيبى ، ص 8

6)جريدة طرابلس الغرب (1954.11.11)

7) جريدة طرابلس الغرب (1953.3.10)

8)د .ياسين أحمد فاعور ، مرجع سابق ، ص 14

9)المرجع السابق ، ص14

10)نفسه ، ص 14

11)جريدة طرابلس الغرب (1953.1.11)

12)عبدالحليم محمد حسين ، مرجع سابق ، ص 8

13)المرجع السابق ، ص 7

14)نفسه ، ص7

15)نفسه ، ص 8

16) جريدة طرابلس الغرب (1955.12.12)

17) عبد الحليم محمد حسين ، السخرية في أدب الجاحظ ، ص 134 .

18)إبراهيم المازني ، رحلة الحجاز ، ص103 ، نقلا عن د. نعمات أحمد فؤاد ، أدب المازني ، ص 292

19) جريدة طرابلس الغرب (1953.12.18)

20)المصدر نفسه (1954.2.9)

21)د. نعمات أحمد فؤاد ، أدب المازني ، ص 281 -283

22) المرجع السابق ، ص 283

23)جريدة طرابلس الغرب (1954.2.18)

24)جريدة طرابلس الغرب (1953.2.9)

25)نجم الدين الكيب ، مرجع سابق ، ص 12

26)نفسه ، ص 19

27)انظر قاموس Oxford Advanced مادة IRONY، 450

28)د. ياسين أحمد قاعور ، مرجع سابق ، ص 17

29)نفسه ، ص 18.17

30)نفسه ، ص 18

31)المرجع السابق ، ص 18

32)د.زكريا ابراهيم ، سيكولوجية الفكاهة والضحك ، ص149

المثنى بن حارثة الشيباني مجاهد عبقري تجهله الأجيال

● تيسير بن موسى

اثنان من أعظم القادة العسكريين العالميين ، لم يعرفهما جيداً الخليفة العادل : «عمر بن الخطاب» الأول سيف الله المسلول «خالد بن الوليد» والثاني«المثنى بن حارثة الشيباني» .وقد تنبه ذلك الخليفة وصاحب رسول الله الجليل ، في أخريات أيامه إلى خطئه بحق هاتين العبقريتين فقال :« يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم مني بالرجال ، إني لم أعزلهما (خالد والمثنى) عن ريبة ، ولكن الناس عظّموهما ، فخشيت أن يوكلوا إليهما ».(1)

لقد احتل خالد والمثني مكان الصدارة بكل جدارة بين مجموعة عظماء التاريخ العالمي، في ميادين السوقية «الاستراتيجية» العسكرية ، وساحات النزال والحروب، فلم يُسجّل عليهما في جميع المعارك التي خاضاها، وهي كثيرة عديدة ،أية هزيمة ، حتى في المعارك التي خاضاها وهما مشركان وثنيان ، قبل أن يهديهما الله لنور الإسلام العظيم . ،نراهما حين كانا يقاتلان في معركتين منفصلتين (معركة مؤتة لخالد ، ومعركة الجسر للمثنى) كفردين عاديين ، عملا علي إنقاذ المسلمين من كارثة ماحقة ساحقة ، وذلك حين تقدما الصفوف إثرمقتل قادةتينيك المعركتين،وعادا بالجيش الإسلامي سالماً إلي قواعده . وأرى أن سيف الله خالد بن الوليد قد أخذ وإلي حدٍ ما ، حقه في البحث والدراسة من قبل الباحثين ، أما المثنيى بن حارثة الشيباني ، فلازالت الدراسات العربية الحديثة عنه شحيحة ، لم توف هذا العَلَم العربي الشامخ حقه من البحث والتقصي والتعريف به ، لذا سنحاول الاقتراب من هذه العبقرية العربية الفذة ، آملاً أن أكون قد أنصفت ولو جزئياً تاريخ هذا البطل المجاهد والشهيد المبرور .

تُجمع المصادر العربية علي أن المثنى هو المؤسس الحقيقي للعراق العربي المسلم ، وموجد أسباب انتصار العرب المسلمين في القادسية ونهوند وغيرهما ، وبالتالي غياب الإمبراطورية الساسانية المجوسية من التاريخ ، وانتشار الدين الإسلامي حتي الصين شرقاً واسم هذا القائد الفارس المجاهدكاملا:المثني بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرّة بن ذُهل بن شيبان . وشيبان هذا مؤسس القبيلة الكبيرة التي حملت اسمه ، هو من قبيلة بكربن وائل التي تعود في أصولها إلي قبائل ربيعة ومضر

من نسل معد وعدنان ،فقبيلة شيبان إذن من القبائل العدنانية التي استوطنت الحجاز والجهات الشمالية من جزيرة العرب ، ومعروف أن النسّابة العرب يقولون :إن العرب ينحدرون من جدين هما قحطان سكنوا اليمن وجنوب ووسط جزيرة العرب، وعدنان سكنوا شمالها ، واختلف هؤلاء النسابة حول نوعية الصلة القرابية بين هذين الجدين ،وإن كانوا يجُمعون علي أن أصلهما البعيد واحد .(*) وقبل الإسلام بزمن غير قصير ،تركت مجموعة من القبائل العدنانية من ربيعة ومضر موطنها الأصلي في الحجاز وسكنت الجهة الشرقية من جزيرة العرب،في البحرين تحديداً ، واسم البحرين كان يطلق في السابق علي المنطقة الممتدة من مسقْط جنوباً وحتي نهري دجلة والفرات شمالاً . وقد حافظت تلك القبائل علي طابعها البدوي في اختيار المناطق الصحراوية ، والإقامة في خيام مع الظعن والترحال طلباً للكلأ والمياه،وذلك في حدود تلك المنطقة (2) .

وبالسكن الجديد لهذه القبائل ، فإنها قد جاورت بلاد فارس والتنوخيين المناذرة وعاصمتهم «الحيرة» في جنوب العراق ، وقد سجل التاريخ لقبائل ربيعة بقيادة بكر بن وائل مأثرة خالدة حين تصدّت لجيش فارسي عرمرم وهزمته في موقعة ذي قار ، دفاعاً عن الكرامة العربية والقيم والأخلاق العربية (3) .

وسط هذا المناخ المشبع بالاعتزاز القومي العربي ، وبالنفور والغضب من الفرس المجوس ، لاستبدادهم واستعبادهم وكذلك احتقارهم للعرب الذين يجاورونهم في العراق ، شبَّ وكبر المثنى ، وإن كان لأيعرف بالتحديد سنة مولده إلا أنها ، كانت قريبة من ولادة النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وذلك أن المثنى كان شاباً من أشراف قبيلته ، عندما سمع بنداء الإسلام خصوصاً بعد أن أصبح هذا الدين قوياً منيعاً بكثرة أتباعه ، إثر هجرة النبي الكريم إلي يثرب أوالمدينة المنورة ، ودخول الآلاف من عرب الحجاز فيه ، شدَّ هذا النداء السماوي ، الموحدّ للعرب ، المقوّي لكيانهم ،الشادّ من عزيمتهم، وأما المثنى بن حارثة الشيباني ، فقد وجد فيه ماكان يبحث عنه ويتمناه ويسعي إليه ، وهو قوة عربية متماسكة ، نبيلة في رسالتها ، مُشرّفة في أخلاقياتها ، ضاربة في قتالها ، لذا يشدُّ الرحال ويتجه علي رأس نفر من أصحابه إلي المدينة المنورة في السنة التاسعة للهجرة ، ويتقدم من النبي عليه السلام ناطقاً ، ومن معه بالشهادتين ، ومنذ ذلك التاريخ اعتبر نفسه سيفاً قاطعاً من سيوف الإسلام (4). لذا نراه بعد وفاة النبى الكريم يتقدم الصفوف لمقاتلة المرتدين الذين اعتبرهم ، إضافة إلي كفرهم وضلالهم ، خونة بحق أمتهم، التي بدأت تقوي ويتعزّز وجودها ، وتحتل مكانها المرموق بين الأمم ، بفضل هذا الدين القويم ، لقد كان سيف المثني صارماً قاسياً علي المرتدين من الأعراب ، وحين وجّه الخليفة أبوبكر الصديق جيشاً بقيادة أبي العلا الحضرمي للجهات الشرقية من جزيرة العرب في منطقة البحرين ، انضم إليه المثنى علي رأس العشرات من قبيلته ، وقد اطمأن قلب العلاء للمثنى وأوكل إليه ملاحقة المرتدين من اليمامة حتي تخوم فارس في العراق شمالاً ، واندفع

(*) يقول العلامة ابن حزم:(جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم: عدنان وقحطان وقضاعه)أبو محمد علي علي ابن حزم الأندلسي جمهرة أنساب العرب .تحقيق:عبدالسلام هارون (ط٣) مصر - دار المعارف - 1 7 9 1 ف ص٧(التحرير -التراث الشعب)

هذا القائد العربي بقوة وعنف نحو كتائب المرتدين يهزمها الواحدة تلو الأخرى ، وقد أخذت أنباء انتصاراته السريعة الحاسمة ، يتناقلها الركبان حتي وصلت إلي المدينة المنورة وإلي صاحب رسول الله أبي بكر الصديق ،فقال لمن معه ؟« هل عرّفتموني بهذا المقاتل الذي تأتينا وقائعه ، قبل معرفة نسبه »فأجابه قيس بن عاصم المنقريّ ، أحد أصحاب رسول الله ، من بني تيم قائلاً :« إن هذا الذي تسأل عنه ياأبا بكر ، رجل غير خامل الذكر ، ولامجهول النسب ولاذليل العماد ، إنه المثنى بن حارثة الشيباني »(5) وبعد أن وُئدتْ حركة المرتدين في مهدها ، توجّه المثنَّى إلي المدينة المنورة لمقابلة أبي بكر حاملاً معه مخططاً استراتيجياً لقتال الفرس والثأر منهم لجميع ماألحقوه ببني قومه العرب من ذل ومهانة واستعلاء وتكبر عليهم ، وتردّد أبو بكر ، فمجابهة إمبراطورية تُعتبر واحدة من كبري إمبراطوريات ذلك العصر ، أمر محفوف بالخطر الكبير وغير مضمون النتائج ، لكن ذلك الخليفة العظيم حين شعر بنبرة الصدق والحماس في حديث المثنى ، تراجع قليلاً عن تردده وأذن له بأن يخوض حرباً محدودة مع الفرس بادئ الأمر ، وكتب له عهداً بتوليته شؤون العراق الحربية ، وعاد المثنى إلي العراق ، وبدون أن يضيع وقتاً ، استل سيفه وأخذ يقاتل أهل سواد العراق من العرب الذين لازالوا علي جهالتهم وعمالتهم للفرس ، ونجح في فترة قصيرة في تحويل الآلاف منهم إلي الإسلام ، وكانوا عدته للبدء في قتال الفرس . ثم انتقل للمرحلة التالية وهي قتال الفرس ودخل معهم في معارك محدودة ألحق بهم هزائم مُرّة قاصمة ، وقد شكّلت هذه المعارك الدليل علي قدرة العرب المسلمين على هزيمة الفرس المجوس ، فأرسل أخاه مسعوداً إلي أبي بكر في المدينة حاملاً إليه أخبار انتصاراته طالباً منه العون والمدد ، لاستكمال عملية طرد الفرس من أرض العرب ، بل الدخول معهم في معركة حاسمة ، مؤكداً للخليفة بأن هؤلاء الأعاجم عبدة النار ، ماهم إلاّ نمور من ورق ، وأن المقاتل العربي بفضل الإسلام أصبح يعادل بقوته وفدائيته عشرة رجال من اولئك المجوس . وقد عبّر المثني عن إيمانه بالمقاتل العربي المسلم إثر معركة الجسر - التي سأتعرض لها لاحقاً - بقوله :« ...قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية ، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليَّ من ألف من العرب ، ولمائة اليوم من العرب أشدُّ عليَّ من ألف من العجم ، إن الله أذهب بأسهم (أي العجم) ورهن كيدهم.... »(6)

لقد سرّ أبو بكر الصديق بالأنباء التي حملها له مسعود أخو المثني ، وشجعته للمضي في منازلة الفرس ، واتخذ قراره بمدّ المثني بقوات عربية ضاربة . وتأسيساً علي قرار أبي بكر هذا ، فإن بعض الباحثين يذهب إلي أن تجرؤ المثني علي الفرس وماحققه من انتصارات عليهم ، شجّع أبا بكر علي فتح باب الفتوحات العربية الإسلامية خارج حدود الجزيرة العربية بشكل عام وعلي كل الجبهات ، ويقول د. نبيل العاقل في هذا الخصوص :« معروف أن الفتوح خارج الجزيرة العربية بدأت في العراق ، وأن مسير المثنى في فتح العراق بدأ أول الأمر بدون إذن الخليفة أو علمه ، وهذا يدعونا للتساؤل ، هل كان أبوبكر يُفكّر في توجيه الجيوش خارج

الجزيرة العربية لنشر الإسلام أم هل جاء الفتح بعد أن بدأت مغامرة المثنى ؟؟؟ ويمضي الدكتور العاقل :« إننا نميل إلي الاعتقاد بأن أبا بكر كان يري في غزو الروم مغامرة لايسهل الإقدام عليها وذلك لما نعرفه من حرصه علي عدم تعريض المدينة المنورة والجزيرة العربية بوجه عام للأخطار والكوارث ،أما في مايتعلق بفارس فإننا نعتقد أن أبا بكر لم يفكر في محاربة الفرس لأسباب أهمها :-

1)أن الحجاز لايتصل بفارس ، والبلاد العربية التي تتاخم الفرس هي البلاد التي تفشّت فيها الردة ،مما يجعل أهلها في نظر أبي بكر غير موثوقين ولا يُعتمد علي معونتهم ضد الفرس .

2)أن أهل الحجاز ، كانت لهم علاقات طويلة مع فارس قبل الإسلام، وكانوا يعرفون قوتها وبأسها مما يجعلهم يتهيبّون خوض حرب معها ...« ويخلص د.العاقل للقول :« وهكذا فإننا نميل إلي الاعتقاد بأن أبا بكر حين وردته أخبار مغامرة المثنى لم يكن يفكر تفكيراً جدياً بتسيير الجيوش للفتح خارج حدود الجزيرة العربية ،سيما وأنه كان حديث العهد بالخروج من دوّامة حروب الردة التي استنفذت الكثير من جهده وقوة جيشه ... »(7)

وهذا مايرجح صحة ماذهب إليه د. نبيه العاقل إذ إن اتساق الأحداث التي كانت تعتمل في المدينة المنورة ،يؤكد ذلك ، ومن هنا يتضح بشكل جلي الدور التاريخي المهم الذي لعبه المثني بن حارثة ، بجرأته وحماسه ، وتمسكه بقوة وباعتزاز وافتخار ، بقومه العرب وبدينه الحنيف ، في صنع تاريخ العرب المسلمين في القرون الوسطى ، مباشرة أو بشكل غير مباشر.

إذن قرر أبوبكر دعم المثنى في نزاله مع الفرس ،فأوعز إلي خالد بن الوليد بأن يتوجه علي رأس جيش كبير قوامه عشرة آلاف مقاتل إلي العراق لدعم جيش المثنى ، ويبدو أن ثقة أبي بكر بخالد ،وعدم معرفته بالمثني معرفة وثيقة ، مع ظلال حروب الردة التي كان وقودها القبائل العربية التي قسم من رجالها يُشكّل جيش المثنى ، هذه العوامل دفعت الخليفة الحريص لأن يعقد لواء القيادة لخالد علي أن يكون المثنى مساعده وتحت إمرته . وانشرح صدر المثنى لنجاح مساعيه مع أبي بكر، وماكان أمر القيادة والزعامة يشغل باله بقدر انشغاله وتحرقه لتحرير بني قومه العرب من ربقة الهوان المجوسي ، لذلك خرج لاستقبال خالد وجيشه في منتصف الطريق ، وحسب تعبير أبي جرير الطبري :« فانقضّ إليه جواداً حتي لحق به (بخالد) ....(8)

التقي خالد والمثنى في منطقة «النباج» التي تقع شمال هضبة نجد شرق مدينة حائل ، وفي هذه المنطقة البعيدة نسبياً عن أراضي العراق ، استمع خالد باهتمام للمثني وهو يشرح له طبيعة بلاد العراق ، والوضع السياسي والعسكري للفرس وكذلك أحوال القوات العربية الموجودة في العراق ، ووضع الاثنان خطط تحركهما في بلاد الرافدين لمجابهة الفرس ، وفي النباج وعلي ضوء المعلومات الاستراتيجية التي تحدّث فيها المثنى تمّ توحيد قوات خالد وعددها عشرة آلاف مقاتل ، وقوات المثنى وعددها ثمانية آلاف مقاتل ، وقُسّم هذا الجيش العربي الموحّد إلي ثلاث فرق وطلب خالد من كل فرقة التقدم نحو تخوم العراق من طريق

خاص ، بقصد التمويه ، علي أن تلتقي الفرق الثلاث في منطقة الحفير القريبة من«الأبلّة» وهي بلدة قامت في مكانها مدينة البصرة الآن ، وتولي قيادة الفرقة الأولى «خالد بن الوليد» والثانية «المثنى بن حارثة»، والثالثة بقيادة «عديّ بن حاتم» . وبدأت فرقة المثنى المسير تلتها بعد يومين فرقة عدى بن حاتم ، وفي اليوم الثالث تحرك خالد بالفرقة الثالثة ، ورغم حيطة خالد لإخفاء تحركه عن الفرس إلاّ أن عيون هؤلاء الآخرين كشفت تحرك الجيش العربي ، فسارع أحد قادة الفرس في العراق وهو «هُرمز» بتحريك قواته نحو «الحفير» ونشر قواته عند عين ماء قريبة منها ، وانتظر المثنى وصول عدي وخالد ، وفي الحفير بدأت أولي معارك خالد والمثني مع الفرس ، وتقدم «هرمز» والغرور يملأ نفسه طالباً مبارزة خالد وجهاً لوجه ، ووافق خالد ودخل الاثنان في مبارزة لم تدم طويلاً إذ سرعان ماأطاح خالد بخصمه المغرور من علي حصانه قتيلاً . وبعدها أعطى هذا القائد الفذ لقواته إشارة الهجوم نحو الجيش الفارسي الذي ولىّ الأدبار منهزماً باتجاه الأبلة ، وطلب خالد من المثنى ملاحقة فلول الفرس فلاحقها بقواته وقد صرع منها أعداداً كبيرة ، لكنه توقف عند بلدة المذار ، حين جاءته الأنباء بأن الملك الفارسي (أرديشير) جهزّ جيشاً كبيراً علي عجل بقيادة «قارن بن قريانس» للتصدي للجيش العربي ، وأسرع المثنى في إبلاغ خالد بهذا النبأ ، فتحول خالد علي عجل إلي مكان المثنى في المذار ، ووضع الاثنان خطة للقاء ذلك الجيش الفارسي الكبير ، ولم تمضِ أيام حتي وصل الجيش الفارسي يتقدمه قارن ، ولم يمهله العرب فاندفعوا نحوه بقوة وأعملوا سيوفهم في رقاب الفرس الذين قتل منهم كثير ومن بينهم قائدهم قارن ومساعداه قباز وأنوشجان.

وظل خالد يستعين بالمثنى إذا حضر ويستخلفه إذا غاب حتي فتح الله علي المسلمين مدينتي «الحيرة والأنبار» المهمتين وأصبحت العراق تقريباً في قبضة المسلمين ، وكان آخر ماحققه المثنى من انتصارات في عهد خالد ، خروجه بقواته فقط لملاقاة الفرس قرب مدينة بغداد الحالية في موقع يدعي (سوق بغداد والعال) ونجح المثنى في إلحاق هزيمة كاسحة بالفرس ومن والاهم من العرب في هذا الموقع وعاد ومعه غنائم كثيرة ويقول أحد الشعراء في هذه المعركة:-

وللمثنى بالعال معركةٌ
شاهدها من قبيله بشرُ
كتيبة أفزعت بوقعتها
كسري وكاد الإيوان ينفطرُ
وشجع المسلمون إذ حذروا
وفي صروف التجارب العبرُ (9)

كان الموقف العسكري في بلاد الشام قد وصل الي درجة كبيرة من الخطورة ، فهرقل الروم حشد جيشاً تعداده ، حسب المصادر العربية ، حوالي ربع مليون جندي ، وهو الأمر الذي جعل أبابكر الصديق في حال انشغال كبير ، فأرسل إلي خالد بن الوليد أمراً مستعجلاً بأن يترك العراق فور تلقيه هذا الأمر ويلتحق مع نصف مقاتلي العراق بالقوات الإسلامية المحتشدة في الشام ، ويستخلف المثنى علي العراق ، امتثل خالد لأمر الخليفة وقسّم عدد المقاتلين إلي نصفين واستأثر بالنصف الذي سيرافقه إلي بلاد الشام بجميع

صحابة رسول الله ، وأبقي في النصف الآخر أهل القناعة ، ومن الداخلين في الإسلام حديثاً ، من أهل العراق علي أن يكونوا تحت قيادة المثنى وذلك حسب تعليمات أبي بكر وحين رأي المثنى مافعله خالد في اختيار جنده ، ثار وغضب وقال لخالد والله لاأقيم إلا علي إنفاذ أمر أبي بكر ، وبالله ماأرجوا النصر إلا بأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم ، ولما رأى خالد ذلك ضحك وقال والله لن يكون لك إلا ماتريد ، فأعاد تقسيم الرجال بحيث ترك معه جماعة من صحابة رسول الله من أهل الحجاز ، وقد ودّع المثنى خالداً حين مغادرة العراق ومشي معه حتي تخوم البادية ، وقبل أن يفترقا عانق خالد المثنى قائلاً له «إرجع ياأخي رحمك الله إلي سلطانك غير مقصّر ولا وان»(10) عاد المثني إلي العراق وجمع قواته وسار بها نحو مدينة بابل . بعد أن علم أن الفرس الذين علموا بمسير خالد للشام ، حشدوا جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل بقيادة «هرمز جاذويه» وبينما كان ينظم قواته ويرسم خطة قتاله مه هرمز ، دخل معسكر المسلمين أحد الجنود الفرس ويبده رسالة من كسرى يستهين بها بالمثني وبالعرب ومما جاء في الرسالة :«إعلم بأني بعثت إليك جنداً من وحش أهل فارس ، وانما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم فابتسم المثني ثم طلب من الفارسي أن ينتظر حتي يحمل جوابه ، فكتب إلي كسري يقول :«...انما أنت أحد رجلين ،إما باغٍ ، فذلك شرّ لك وخير لنا ، وإما كاذب ، فأعظم الكذابين عقوبة عند الله وعند الناس الملوك وأما الذي يدلنّا عليه الرأى ، فإنكم إنما اضطررتم إليهم (إلي نوعية أولئك الجند) فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلي رعاة الدجاج والخنازير» (11) وحمل المثنى علي الجيش الفارسي فوق مرتفعات أطلال بابل حملة قوية ، بدأها بمهاجمة فيل كبير وقتله ، ثم أحاط المثنى ورجاله بالجيش الفارسي ، فما هي إلا ساعات حتي أصبح هذا الجيش كعصف مأكول، وطارد المسلمون فلوله المنهزمة حتي أبواب مدينة المدائن عاصمة الفرس . ونزلت أنباء هذه الهزيمة النكراء للجيش الفارسي نزول الصاعقة علي رأس كسرى الذي اعتراه غمُّ شديد مات علي أثره . وفي الجانب الآخر ازداد نجم المثنى تألقاً في العراق وفي عاصمة الخلافة . لكن هذا النصر من ناحية أخري جعل المثني في موقف حرج إذ إن الأنباء وردته بأن الفرس قرروا تجهيز جيش كبير للثأر من هزيمة معركة بابل ، فانشغل المثني وتعددت رسائله إلي المدينة المنورة طالباً العون والمدد ،ولما كانت الخلافة منشغلة بأمر الشام ، لم يتلق رداً علي رسائله، فقرر السفر إلي المدينة بنفسه وحين وصلها كان أبوبكر الصديق مريضاً على فراش الموت ، ومع ذلك أذن له بالدخول وسمع منه مايُقلقه عن الوضع فى العراق وعن طلبه بمدّه بعون من الرجال كما وافق الخليفة علي طلب المثنى بأن يستعين في قتال الفرس بمن ظهرت توبته من الأعراب الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة النبي الكريم عليه السلام ثم نادى أبو بكر عمر بن الخطاب قائلاً :«اسمع ياعمر ماأقول لك ، ثم إعمل به ، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا ، فإن أنا متُّ فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنى ولا يشغلنكم مصيبة -وإن عظمت- عن أمر دينكم ووصية ربكم..... وإن فتح الله على أمراء أهل الشام، فاردد أصحاب خالد

إلى العــراق فـإنهم أهله وولاة أمــره وهم أهل الضراوة والجرأة عليهم »(12) وقطع عمر عهداً أمام أبى بكر بأن يُنفّذ هذه الوصية الأخيرة لهذا الخليفة الجليل .

ومــات أبو بكر من يومــه وتولى عــمــر بن الخطاب الخـلافــة وكـانت الأنبــاء قـد وردت بانتصار العرب المسلمين في اليرموك ،مما شجع على الالتفات إلى جبهة العراق ، فاستنفر الناس فى المدينة وغيرها للعراق ، لكن استجابة المسلمين كانت ضعيفة فتولى المثنى الذى كان لايزال في المدينة تشــجـيع المسلمين على الإنخراط في جهاد الفرس ، ومما قاله فى أحد مساجد المدينة «أيها الناس لايعظمنَّ عليكم الجهاد فى فرس ، فإنا قد توسطنا تلك الديار ، وعلَينا الفرس على شقي خير السواد (أرض العراق الزراعية) وشاطرناهم إيّاها ونلنا منهم ، واجـتـرأ من قـبلناعليـهم ولنا إن شــاء الله مابعدها » (13)

وتحمس المتطوعون للجهاد حتي بلغوا ألف رجل من أهل المدينة فقط وكان أول المتطوعين أبوعبيد بن مسعود الثقفي ورهطه ، لكن عمر الذي لمس بنفسه الشعبية الكبيرة التي يحظى بها المثنى بين جموع العرب المسلمين خاف- كما قال - أن يفتتن الناس به ، فعزله عن منصب القيادة العليا وأوكلها إلى أبى عبيد الثقفي وقد دفع المسلمون بقرار عمر هذا الثمن باهظاً كما سوف نرى ، وتلقي المثني قرار عمر بعزله بروح إسلامية عالية ولعله قال كما قال خالد بن الوليد عندما عزله أيضاً وبنفس الوقت تقريباً عن منصب القيادة العليا في جبهة الشام إنى لاأقاتل من أجل عمر بل جهاداً في سبيل الله ونشر دين محمد . و طلب عمر من المثني أن يعود إلى العراق وينتظر قدوم أبى عبيد وبقية الرجال ، كما وافق على استنفار من حَسُن إسلامه من أهل الردة ، فنفذ المثني أمر الخليفة وانطلق إلى الحيرة وبقي فيها حتي وصل المدد العربى بقيادة أبى عبيد بعد شهر تقريباً وجاء أول لقاء لهذا القائد الجديد مع الفرس ، بعد أيام من وصوله في معركة «النمارق» قرب مدينة الكوفة وتولى المثني قيادة خيّالة المسلمين وأسفرت المعركة عن انتصار الجيش العربي ووقوع قائد الفرس (جابان) في يدي المثنى أسيراً وتتابعت هذه المعارك المحدودة بين العرب والفرس في كل من «السقاطية» قرب مدينة واسط و«باروسما» في سواد بغداد وأسفرت عن تطهير شامل للقوى الفارسية من معظم جهات سواد العراق ، مما أثار حفيظة إمبراطورة الفرس «بوران» ووزيرها «رستم» فقررا تجهيز جيش فارسي قوي ضارب ، أو كلا قيادته إلى أشهر أمرائهم العسكريين هو: «بهمن جاذويه» الذى يُلقّب بذي الحاجب ، لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه تيهاً وتكبراً ، وانطلق هذا الجيش الكبير باتجاه الحيرة وعسكر أبو عبيد بجيشه في قرية «قس الناطف» علي الضفة الغربية للفرات ، وتجمع الفرس علي الجهة المقابلة،وأرسل ذو الحاجب إلى أبى عبيد يقول له :« إما أن تعبروا إلينا وندعكم تعبرون ، وإما تدعونا نعبر إليكم ... » ولاشك أن اتخاذ القرار محك لقياس النبوغ الإستراتيجى للقائد ، فأبوعبيد رضي الله عنه ، كان من كبار صحابة رسول الله ، وعلي درجة عالية من التقى والإيمان الراسخ ، مع شجاعة وروح فدائية مثالية ، لكنه لم يكن علي دراية كافية

«بتكتيكات» الحرب الحديثة وخططها القتالية ، التي كان يعتمدها القادة العسكريون الفرس، في ذلك الوقت والذين لهم تاريخ طويل في الحروب والقتال ، مع الروم البيزنطيين علي وجه الخصوص . وكان المثنى بحكم تجاربه السابقة مع الفرس ، واطلاعه علي فنون قتالهم ، سارع إلى إقناع أبى عبيد بأن يدع الفرس يعبرون لأن هؤلاء يملكون أدوات العبور ومدربون علي اجتياز الأنهار والسباحة فيها ، وهذا مايجعلهم قادرين علي تأمين خطوط تراجعهم في حال انهزامهم ، بينما العرب ومعظمهم من سكان البوادي والصحاري ليست لديهم خبرة أهل فارس في هذا الميدان ، وقد اقتنع برأى المثنى العديد من رجالات العرب وعلى رأسهم «سليط بن قيس» الذي شدد على أبى عبيد بأن يدع الفرس يعبرون، لكنه رفض الاستماع لصوت العقل معتبراً أن القضية هي قضية شجاعة وإقدام ، بينما الرأي كما يقول المتنبي قبل شجاعة الشجعان ، وحين ألح سليط علي أبى عبيد اتهمه ومن معه بالجبن والتخاذل مذكراً بأنه هو القائد الأعلي وعلي الجميع الإنصياع لأوامره ، وهكذا دفع أبو عبيد رجاله لعبور الفرات وكان سليط المتهم بالجبن والخوف أول العابرين وكذلك أول الشهداء ، وأما ذو الحاجب الذي كان على اطلاع تام بامكانيات خصمه أمر قواته بالهجوم على العرب قبل أن تستكمل جميع قواتهم العبور ، وتُنظَّم في صفوف قتالية ، كما وعد قائدهم ذو الحاجب أبا عبيد ،ولاشك أن هذا الغدر الفارسي المشين ،أثّر علي معنويات العرب ،لكنهم سرعان ماتماسكوا والتحموا مع أعدائهم ، وكان الجيش الفارسي كعادته يستخدم الفيلة في حروبه مع العرب ،فهذه الحيوانات لم يألفها العرب ولاخيولهم ولاجمالهم في الصحراء،وقد ركّبوا للفيلة جلاجل وصنّاجات كثيرة ،تحدث ضجيجاً عالياً حين مسير الفيلة ،وكما هو متوقع،نفرت خيول العرب وإبلهم من الفيلة ومن أصوات الجلاجل ،فتراجعت إلى الخلف بفرسانها ، وبنفس الوقت كانت سهام ونبال الفرس تنهال علي المسلمين في سحب متواصلة ،ومع ذلك تمالك أبوعبيد وحث رجاله على الصمود ولكن عبثاً فقرر التخلص من الفيلة ،فترجل عن حصانه ،وتوجه نحو أكبر الأفيال وأضخمها لقتله ، فتقدم ومعه ثلة من رجاله نحو ذاك الفيلَ فضَرب خرطومه بسيفه ،فجن جنون الفيل فالضربة لم تكن قاتلة،فهجم علي أبى عبيد فألقاه أرضاً وأخذ يحطم عظامه بقدميه ،وكان هذا القائد قد أوصى بأن يخلفه إذا استشهد سبعة من بنى قومه (بني ثقيف) وأولهم شقيقه ، وهذا أمر مستغرب ،إذ من المفروض أن يكون المثني هو الذى يليه في القيادة يرى هل تصرف ابى عبيد هذا مردّه نعرة قبلية ، أو لعله غضب من المثني لمعارضته له بالعبور نحو الضفة الشرقية ؟؟ ومهما يكن من أمر فقد استشهد أولئك الثقفيون السبعة الواحد تلو الآخر ،هكذا أصبح المسلمون بلا قيادة ، وقد دبَّ الذعر والفزع بين صفوف العرب ، فتقدم المثنى بن حارثة ، ملتقطاً اللواء ، متولياً قيادة الناس وبعد تفشي الاضطراب وانهيار معنويات المقاتلين،واستغلال الفرس لهذا الوضع فشددوا من ضرباتهم الموجعة ،رأى المثني أن القـــرار الأسلم والحكيم هو الإنسحاب والتراجع إلى الضفة الغربية ،فصاح بالرجال للتوجه إلى الجسر لعبوره للضفة الأخرى متولياً هو وثلة من رجاله حماية تراجع الجيش

الإسلامي .واندفع المقاتلون نحو الجسر لعبوره وهذ الجسر كان مبنياً علي مجموعة من القوارب مُدّد عليها مجموعة من الألواح الخشبية ،إلا أن أحد الثقفيين أخذته الحميَّة فصاح أيها الناس عودوا للقتال ،فإما أن ننتصر أو نلحق بمن استشهدوا قبلنا ،وماكان لصوته وندائه أن يُسمع ويُستجاب فانهال بسيفه علي الحبال التى تربط الزوارق الأولى فقطعها . فابتعدت الزوارق عن اليابسة ،وأدى تصرف هذا الأعرابي الأحمق ،إلى زيادة البلبلة والاضطراب بين القوات العربية ، وقد أخذهم الخوف والهلع كل مأخذ فطريق تراجعهم الوحيد قد دُمّر ، وسيوف الفرس ورماحهم وفيلهم تلاحقهم فدفع الخوف البعض إلى إلقاء أنفسهم في مياه الفرات فمات كثير منهم غرقاً لعدم اتقانهم السباحة ، فأسرع المثني إلى جهة الجسر طالباً من رجاله إصلاحه ، ثم أخذ يصيح بملء صوته :«ياأيها الناس ،أنادونكم فاعبروا على هينتكم ، ولاتدهشوا ،فإنّا لن نزايل مكاننا حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولاتُغرقوا أنفسكم .. »فاطمأنت جموع المسلمين نوعاً ما ، وأخذ المثنى ورجاله يمررونهم بنظام بينما أو كل لجماعة أخرى من رجاله مقارعة الفرس وردّهم عن الجسر وعن العابرين عليه ، وقد سقط العديد من رجال المثني قتلى وأصيب هو نفسه بطعنه رمح في كتفه ،غير أنه لم يأبه لجراحه ، وحين اطمأن إلى أن جميع المقاتلين بمن فيهم الجرحى وصلوا بسلام للضفة الغربية ، عبر هو ومن بقى من رجاله ...لقد أنقذ تصرف المثنى الحكيم الشجاع الآلاف من المسلمين ، وأسفرت معركة الجسر هذه ،عن استشهاد المئات من صحابة رسول الله وحفظة القرآن ، ومن رجال المثني من أهل العراق ،وعلي الضفة الغربية أعاد المثني تنظيم صفوف المسلمين وعاد بهم إلى «الحيرة » ثم إلى« أُليّس» جنوباً ، بسرعة ليتقي الفرس إذا اقتفوا أثره ، لكن هؤلاء لم يفعلوا واكتفوا بما حققوه من نصر في هذه المعركة الدامية (14).

ظل عمر بن الخطاب ،سنة-كما يقول البلاذري- حزين القلب مفجوع الخاطر علي قتلي معركة الجسر من خيرة المسلمين وعلى النتيجة التى آلت إليها هذه المعركة ، ولعل مما زاد في شدَّة حزن عمر ، عزله للمثنى وتوسيد القيادة لأبي عبيد ولاشك أن خطأ تقديرات أبى عبيد الثقفي هو الذى قاد المسلمين إلى هذه الكارثة ،وقد وعى عمر ذلك بكل تأكيد .أما المثنى فقد ظلَّ طيلة هذا العام في أُليّس في قلّة من المقاتلين ، ومن ناحية أخرى فإن انتصار الفرس في معركة الجسر شجعهم علي مواصة هجوماتهم ضد المسلمين لطردهم من العراق فأخذوا يُعدّون عدتهم لانجاز هذه المهمة ، وقد علم المثني بما يخطط له الفرس فأكثر من إرسال وفوده وسفرائه إلى الخليفة عمر بن الخطاب طالباً العون والمدد ،مؤكداً له بأن معركة الجسر ليست آخر المطاف ونهاية مقارعة الفرس . وفي خطاب آخر .نشط المثنى في إثارة حمية القبائل العربية التي لازالت علي دين المسيح في العراق ،خصوصاً قبائل بني تغلب وبني نُمير فلبي دعوته المئات من رجال هذه القبائل وتوافدوا إلى معسكره زرافات ووحدانا حتى تشكل لديه جيش قوي الشكيمة ، قادر علي الأقل علي صدَّ الفرس إذا حاولوا تنفيذ مخططهم في طرد المسلمين والعرب عموماً من العراق وحين علم عمر بهذا التطور الجديد عاد

إليه حماسه السابق في الجهاد ضد الفرس ، فأخذ يستنهض الناس في المدينة المنورة والحجاز للقتال ، مرغباً إياهم بغنائم آل كسرى ، فلبي دعوته جمع كبير فأمرهم بالالتحاق بجيش المثني ، الذي امتلأت نفسه سعادة وقد عقد العزم علي الثأر من الفرس لشهداء معركة الجسر ، وبعد أن وصل جميع الرجال نظمّهم في كتائب وفصائل ، ثم تقدم بجيشه هذا الى الشمال الغربي وعسكر في «مرج السباخ» إلي الجنوب من القادسية ، وكان جيش فارسي كبير ، توجه بناء علي أوامر كسري لملاقاة جيش المثني ، وكان تحت قيادة «مهران الهمذاني» وحين علم المثنى بتحرك هذا الجيش الفارسي اللجب ، ترك مرج السباخ وتقدم إلى «البويب» وعسكر قبالة الجيش الفارسي علي الضفة الغربية لنهر الفرات ، وأرسل مهران إلى المثني يخيّره إما العبور إليه أو يعبر هو إليه ،فأجابه المثنى «فلتعبروا أنتم إلينا» وأشير إلى أن ذلك القائد العربي الشجاع كان لايزال يعاني من أثر الجرح البليغ الذي أصيب به علي إثر طعنة رمح في معركة الجسر ، فكان عليه أن يركن للراحة حتي يشفي تماماً لكنه لم يعط نفسه تلك الراحة ، فكان الجرح ماإن يبدأ بالإلتئام حتي ينكث من جديد . وقد قاد المثني معركة «البويب» وجراحه لازالت توهنه ، ومع ذلك لم يبال فحماسه بقهر الفرس ، وإعلاء كلمة دينه ، وكرامة وعزة قومه،كانت ولاشك من القوة بحيث جعلته لايأبه بتلك الآلام المبرحة التي تصدر عن جراحه . وقد عبر الفرس إلى الجهة الغربية ، وتركهم المثنى ينظمون صفوفهم ، ولم يعاملهم بأسلوب الغدر الذى عامل به الفرس المسلمين في معركة الجسر .

ثم أعطى أوامره لقواته بالاشتباك بقوة مع عدوهم وعدو دينهم ، واستمر القتال ساعات طوالا بدون أن يسفر عن نتيجة لصالح الطرفين ، ورأى هذا القائد أن عدد جيش الفرس ضعف عدد جيشه وأن إطالة أمد المعركة علي هذا الحال لن يكون في صالح المسلمين ، فقرر القيام بعمل يربك جنود أعدائه ، فاختار اثنين من عرب العراق النصاري المشهورين بشدة بأسهم وقوة شكيمتهم وهما «أنس بن هلال النمري» و«ابن مردي الفهر التغلبي» وعرض عليهما خطة تقضي بأن يقود الثلاثة ثُلّة منتقاة من الرجال ، واختراق صفوف الفرس بسرعة والوصول إلى قائدهم مهران وقتله أو علي الأقل إحاقته بخطر القتل ، وهو الأمر الذي سيربك قادة الكتائب الفارسية الأخرى فيُسرعون لإنقاذ قائدهم فيتركون مواقعهم في غير نظام ،مما سينتج عنه تخلخل في الجبهة الفارسية يستغلها المسلمون للنفوذ منها وتطويقهم ..كانت خطة استراتيجية علي غاية من الذكاء والفطنة الحربية ، فوافقاه واندفع الثلاثة المثني وأنس وابن مرذي علي رأس ثلة قليلة من الرجال ، بسرعة كالسهم المارق نحو مهران ، الذي أخذته وحرّاسه المفاجأة ، وأعمل المثني ورجاله سيوفهم في رقاب أولئك الحراس ، وكما توقع ذلك القائد الفذ ، فإن بقية قادة الكتائب الفارسية ، حين رأوا الخطر محدقاً بقائدهم الكبير ، تركوا أماكنهم وتحصناتهم واتجهوا بقواتهم نحو موقع قائدهم لحمايته والدفاع عنه ، فاختلت صفوف الجيش الفارسي ، واستغلها العرب أحسن استغلال ونفذوا من الثغرات التي أحدثها الفرس بتحركهم نحو مهران ، وأخذوا ينهالون عليهم بسيوفهم ورماحهم من الأمام

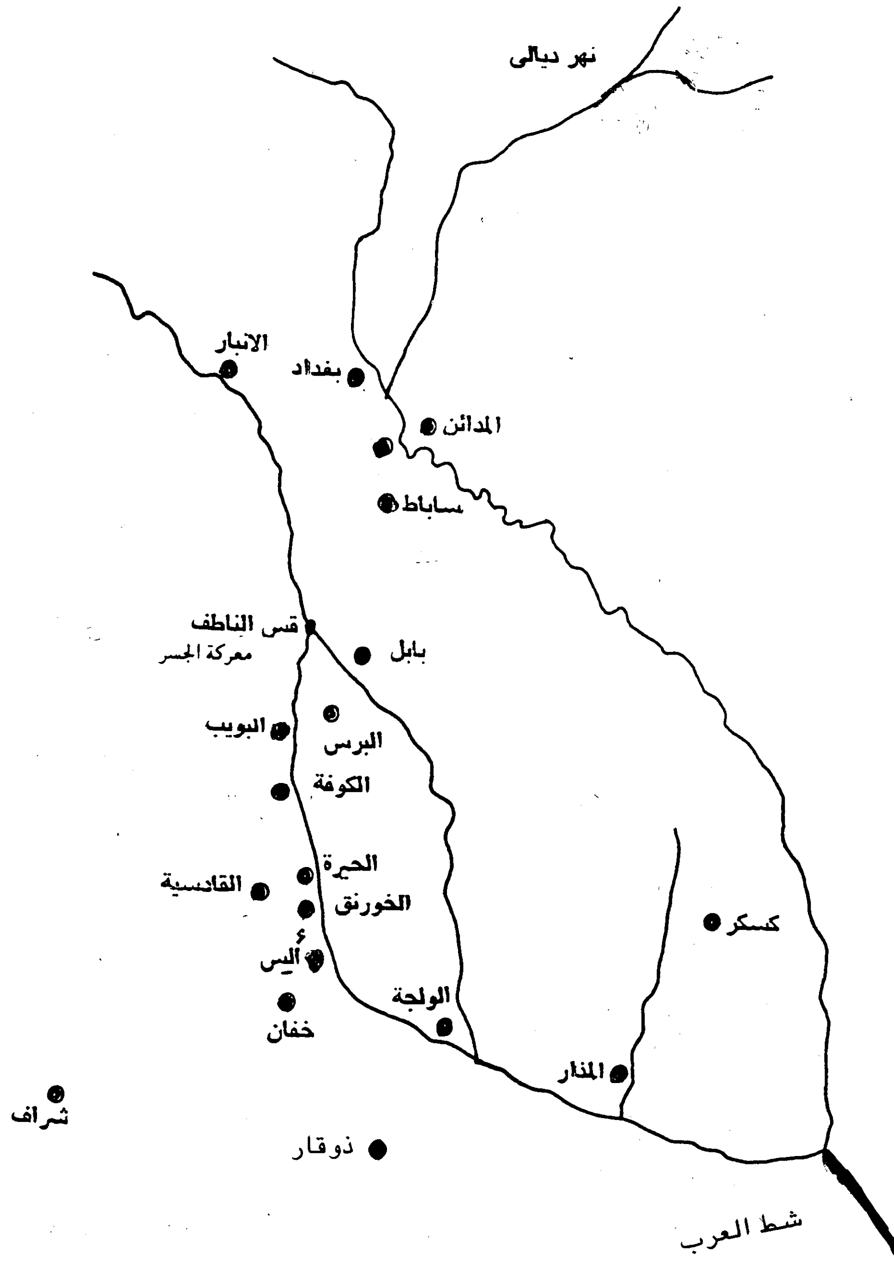
والخلف والجوانب ، وقبل أن يصل سيف المثني ورفيقيه إلى عنق مهران ، تسلّل غلام عربي نصراني من تغلب ، وعمره لايتعدى الثانية عشرة سنة بين صفوف المتحاربين حتي وصل إلى مهران فطعنه برمحه في قلبه طعنة نجلاء قاتلة ، فسقط القائد الفارسي علي الأرض مضرجاً بدمائه فاقد الحياة ، فامتطى ذلك الغلام حصان مهران وأخذ يجرى به بشكل دوائر وسط الفرس والعرب صائحاً بابتهاج وسعادة :

أنا الغلام التغلبي

أنا قتلت المرزبان

وبعد أن فقد الفرس قائدهم ،ركبهم الذعر فأخذ الكثير منهم يلقي بسلاحه متوجهاً الي النهر لعبوره إلى الضفة المقابلة هرباً من سيوف العرب ، لكن المثنى أسرع إلى رأس الجسر ومعه عدد من رجاله قاطعاً علي الفرس طريق فرارهم ، فطاش صواب هؤلاء ولم يعودوا يدْرون ماذا يفعلون ، وتفشّى القتل بينهم حتي أن ماقُتل منهم - وفق المصادر العربية - أكثر من سبعة آلاف أى حوالي ثلثي الجيش الفارسي، إن معركة البويب من المعارك الخالدة في تاريخ الصراع العربي الفارسي وشكلت ضربة قاصمة للفرس اكتشفوا بأنهم أصبحوا قبالة قوة عربية ضاربة إن لم تكن أقوى من البيزنطيين فهي علي الأقل توازيها وهذا يتطلب مقابلتهم بجيش فارسي كبير يقوده كسرى بنفسه أو وزيره الأول ، كالذى كانوا يقابلون به الروم البيزنطين وغيرهم من إمبراطوريات ذلك العهد ، والجيش الذي أعده الفرس في معركة القادسية وقيادة رستم له ، هو الدليل علي مانقول.

وأسفرت معركة البويب أيضاً عن استشهاد المئات من العرب المسلمين من بينهم مسعود بن حارثة شقيق المثنى،حين سقط شهيداً ، صاح المثني الذي خاف أن يؤثر موت أخيه علي معنويات المقاتلين قائلاً:« يامعشر العرب لايرعكم مصرع أخي ، فإن مصارعكم خياركم »كما قتل أيضاً أنس بن الهلال النصراني ، وبعد أن هدأ أوار المعركة ، إنككبّ المثنى علي جثماني شقيقه مسعود وصديقه أنس ، وضمهما إلى صدره وبكاهما بحرقة ، ثم وقف هذا القائد بين رجاله في عملية لنقد الذات يؤنب نفسه ، بأنه أخطأ حين قطع الطريق أمام هروب الفرس ، إذ إن خطأه هذا قد ساهم في قتل عدد أكبر من المسلمين ومما قاله بالنص :« ...لقد عجزت عجزة وقى الله شرّها ، بمسابقتي الفرس إلى الجسر حتي أحرجتهم فإني غير عائد ، فلا تعودوا وتقتدوا بي أيها الناس ، فإنها كانت مني زلة ، لاينبغي إحراج أحد إلا مَن لايقوى علي امتناع ... »(15) وعاد المثني بجيشه إلى ذي قار ، وكان المجهود الذي بذله في هذه المعركة قد عمل علي زيادة ضعفه بتأثير الجراح فيه ، فقد نكأ الجرح والتهب ، فظل طريح الفراش ، غير أنه بقي وهو في فراشه يوجه قواته نحو ملاحقة الفرس حتي تم تحرير سواد العراق تقريباً منهم ، وحين شعر أنه أخذ يدنو من الموت سلم قيادة رجاله إلى «بشر بن الخصاصية» ، كما أرسل سفارة إلى عمر بن الخطاب مؤكداً عليه بوجوب تجهيز جيش قوي ، فقد حان حسم الوضع مع الفرس ، واقتنع عمر برأي المثني فمعركة البويب وماحققته لم تترك في نفسه أي شك بأن العرب المسلمين علي أبواب تصفية الشرك في بلاد فارس وفيما وراءها إلى الأبد . ووقع



خريطة توضح المعارك والمواقع التى شارك فيها المثنى بن حارثة الشيباني

اختيار عمر علي « سعد بن أبي وقاص» ليقود معركة القادسية ، وقبل أن يغادر سعد المدينة طلب منه عمر أن يستمع إلى المثني إذا وصل العراق وكان لازال حياً ، فقد وردته الأنباء بأن ذلك القائد العربي علي فراش الموت . وكأن المثنى كان يعرف بأنه سيفارق الحياة قبل وصول سعد ، فأوصي من حوله بأن ينقلوا لسعد ماسيقوله لهم ....بأن عليه ألا يقاتل الفرس ، إذا استجمع أمرهم وماؤهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم علي حدود أرضهم علي أدني حجر من أرض العرب وأدني مدَرَة (قرية) من أرض العجم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ماوراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة يكونون أعلم بسبلها وأجرأ على أرضهم . وأن يحارب الفرس مابين القادسية والعذيب ، ثم أسلم روحه ، وحين وصل أخوه الأصغر المعني بن حارثة ، وكان قد أوفده أخوه المثنى إلى القبائل العربية ليحثها على الإنضمام لجيش سعد لأن المعركة القادمة هى معركة العرب جميعاً وستكون الحاسمة ، وجد أخاه قد فارق الحياة ، وبعد أن واراه في مثواه الأخير ، شد الرحال إلى سعد في منطقة (شراف) على حدود العراق مصطحباً معه أسرة المثنى خاصة زوجته سلمي من بني تيم الله بن ثعلبة ، واستقبل سعد المعني وأسرة المثنى خير استقبال وحين استمع إلى الوصية التي تركها المثنى تعهد بأنه سيعمل بها ، وقد برَّ بتعهده ، وتمني لو ظل ذلك القائد حياً ليقاسمه القيادة كما طلب يد سلمي لنفسه ، تكريماً لزوجها البطل ، إذ إن مثل هذا الزواج يُعتبر في أعراف العرب تكريماً للفقيد ،وذلك حين يكرم أرملته ويحميها وأبناءها من ضروف الدهر. ومن المفارقات اللطيفة التي وقعت مع سلمي والتي لم تنس المثني أبداً رغم زواجها من سعد ...أنه حين اشتد وطيس معركة القادسية ،كان سعدبن وقاص يراقب سير القتال عن بعد لشعوره بمرض طارئ أصابه ، وكانت زوجته سلمي تقف بجانبه تراقب سير القتال وهى متوترة الأعصاب ، وكأنها كانت غير مقتنعة بمرض سعد وتخلفه عن القتال ...، وكادت الدائرة تدور علي المسلمين فجزعت سلمي وأخذت تصيح بملء صوتها وهى تبكي :«وامثناه وامثناه ...والله لامثني للخيل بعد اليوم » فثارت ثائرة سعد فلطمها علي وجها وهو يقول :«أين المثني من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحي؟؟ »فالتفتْت إليه كاللّبوة الجريحة صائحة :«عجباً أغيرة وجبناً» فخجل سعد من عمله فأمسك بيدها ملاطفاً معتذراً وهو يقول :والله لايعذرني اليوم أحد إن لم تعذريني وأنت ترين مابي» . وفي الواقع فإن من المميزات التي عُرفتْ عن المثني في حروبه أنه كان كثير الحركة أثناء المعركة ، يتجول بنشاط لايفتر بين أقسام جيشه ويُقوِّم بنفسه نقاط الضعف كما يُبادر إلى توجيه القوات المناسبة إلى النقاط الضعيفة والثغرات التي يجدها بين صفوف عدوه ، كما رأينا ذلك في معركة البويب ويضيف «الأستاذ محمود شيت خطاب» في إبراز عبقرية المثنى العسكرية بقوله :«عند تطبيق مبادئ الحرب يتضح أن المثني كان يطبقها كلها ..فقد كان يطبق مبدأ «اختيار المقصد وإدامته » متشبعاً بروح «التعرّض» يعمل بهمه وبدون كلل لاكمال «تحشيد قواته »قبل كل معركة يخوضها ، كما يطبق مبدأ«التعاون» بين مختلف تشكيلات وصفوف

جيشه ، ويعمل على «إدامة معنويات» قطعاته قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها ، وكان أول من يهجم وآخر من ينسحب ....كما كان يثق بقواته وتثق قواته به ثقة لاحدود لها ويحبونه ويحبهم حباً لامزيداً عليه ، ذا شخصية قوية ، وله قابلية بدنية فائقة تعينه علي تحمل أعباء القتال (16) .

وبعد ...لقد فتح المثنى بن حارثة كما رأينا باب الفتوحات الإسلامية العملاقة ، وإذا كان يَحقُّ للعرب أن يفخروا به فإنه خليقُ بأهل فارس أيضاً أن يُمجّدوه ويُقدّروه ، إذ كانت جهوده وجهاده وفدائيته قد ساهمت في إزاحة كابوس الأكاسرة المستبدين الطغاة و بطانتهم الفاسدة المفسدة عن صدور الشعب الفارسي الأصيل العريق ، بعد أن أشرق علي ربوع بلاده نور الإسلام ، بروحانيته العميقة وبأحكامه السماوية العادلة ، ومنطلقاته العقلانية الإنسانية .

رحم الله المثنى المتفرد بعبقريته الحربية ، وبشموخه القومي وباعتزازه بدينه السماوي العظيم .



الهوامش والمراجع :

(1) عزالدين بن الأثير (الكامل فى التاريخ) ـ دار صادر ودار بيروت ـ بيروت 1956 ـ الجزء الثانى ـ ص:191

(2) أنظر فى ذلك: عماد الدين أبا الفداء(المختصر فى زخبار البشر) ـ ج:1ـ القاهرة المطبعة الحسينية المصرية ـ بلاتاريخ ـ ص104و105وكذلك جرجى زيدان (العرب قبل الإسلام) القاهرة ـ دار الهلال ـ بلاتاريخ ـ ص199و200.

(3) لقد تحدثت بإسهاب وفى ثلاث حلقات عن هذه الموقعة التاريخية الرائعة بصحيفة الجماهيرية تحت عنوان (يوم انتصف العرب من العجم) أنظر الأعداد1656و1662لعام1424م ـ 1995ف من الصحيفة المذكورة.

(4) ابن الأثير ـ ج:2ـ ص:127.

(5) أبو الحسن البلاذري(فتوح البلدان) ـ القاهرة ـ المكتبة التجارية الكبرى 1932ـ ص:.242

(6) أبو جرير الطبرى(تاريخ الرسل والملوك) ـ القاهرة ـ دار المعارف ج:2ـ ص650.

(7) نبيه العاقل (محاضرات فى تاريخ العرب والإسلام) ـ مطبوع على الآلة الكاتبة ـ دمشق ـ جامعة دمشق ـ 1621ـص:116.

(8)الطبرى ـ ج:2ـ ص:552.

(9)البلاذرى:ص:251. وأنظر فيما تقدم الطبرى: ج:2ـ ص552ومابعدها ، ابن الأثير ج: 2ص 197ومابعدها.

(10)البلاذرى: ص:250.

(11)الطبرى:ج:2ـ ص:66وابن الأثير :ج:2 ص:160وانظر كذلك: محمود شيت خطاب(قادة فتح العراق والجزيرة) ـ ط:3ـ1977ـ دار الفكر ـ ص:36

(12) الطبرى ـ ج:2ـ ص:667وابن الأثير ـ ج:2ـ 160.

(13)ابن الأثير ـ ج:2ـ ص:160والبلاذرى ـ ص:251.

(14)أنظر فى هذه الموقعة :الطبرى ـ ج:2ـ ص:630ومابعدها ، ابن الأثير ج:2ـ ص:167ومابعدها البلاذرى ـ ص :252و253ـ خطاب ـ ص :40و41.

(15) أنظر في هذه الموقعة الطبرى ـ ج:2 ـ ص:650ومابعدها ، وابن الأثير ـ ج:2 ـ ص:170ومابعدها ، والبلاذرى ؛ص:253و254وخطاب 41و42.

(16) محمود شيت خطاب:ص:44 ومابعدها وأنظر كذلك فيما تقدم الطبرى ـ ج :3ـ ص :9 ومابعدها وابن الأثير ج: 2 ـ ص:174 ومابعدها البلاذرى:ص:225ومابعدها والعبارات التى بين قوسين هى اصطلاحات عسكرية حديثة ، وهذا يدل علي النبوغ العسكري الفطرى للمثنى الذى لم يتلق فنون القتال فى أكاديميات عسكرية متخصصة.

تُراثُ الشّعب

اقرأها اليوم
واحتفظ بها
لتقرأها غداً ودائماً

كتاب في مجلة
بأقلام مجموعة من الكُتّاب

سجلٌّ موثّقٌ
لدراسة التراث

من الموضوعات التي نشرتها في أعدادها السابقة وأسهم بها كتاب من مختلف الساحات العربية :

- خير الدين التونسي في مئويته
علي مصطفى المصراتي
الحائز على جائزة الفاتح التقديرية للآداب
- بين الفصيح والعامية المصرية
- قاعدة نحوية يجب إلغاؤها من الكتب التعليمية
د . شوقي ضيف
رئيس مجمع اللغة العربية في مصر
- جهود بعض المحدثين في العامي والفصيح
د . ناصر الدين الأسد - العميد الأسبق لكلية الآداب والتربية - جامعة قاريونس (الجامعة الليبية سابقاً)
- في اللهجة الليبية
د. علي فهمي خشيم
- من ألعابنا الشعبية الضائعة .
- عوائد كانت وتلاشت .
د. فؤاد الكعبازي
- أديب يستلهم التراث .. ويسهم في تجديده
أحمد محمد عطية
- البحث عن الكلمة «الحوارية» عند ابن خلدون
عبد الله القويري
- اهتمام المغاربة بالتأليف حول العامي والفصيح .
د . عبد الهادي التازي
- أغاني الترقيص الشعبية عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام .
د . رضوان محمد النجار

- إنشاء الأسطول في عهد صلاح الدين الأيوبي .
د . أمين الطيبي
- هل استبقنا الغرب إلى ابتكار الحروف البارزة للمكفوفين
د . إبراهيم السمرائي
- من الأمثال العامية الليبية والمصرية المتطابقة .
- وحدة المثل الشعبي .. من وحدة الشعب العربي .
د . محمد أحمد وريّث
- تراث الغناء التقليدي في ليبيا
د . عبد الله السباعي
- العمارة العربية .. بين أصالة التراث والتغريب
د . صالح لمعي مصطفى
- اللغة العربية بين المشافهة والتحرير
د . عبد الرحمن الحاج صالح
- قصور تاريخية .. منافعها شتّى
سعيد علي حامد
- تراثنا العربي في العصور القديمة .
د . محمد علي عيسى
- «عين الفرس» التي اختفت في غدامس
بشير قاسم يوشع
- السيرة الشعبية ورصد الوعي القومي
- جحا .. الرمز الحاضر قومياً واجتماعياً
بشير الهاشمي

وغيرها من الموضوعات الكثيرة .. بأقلام عدد كبير من الكتاب

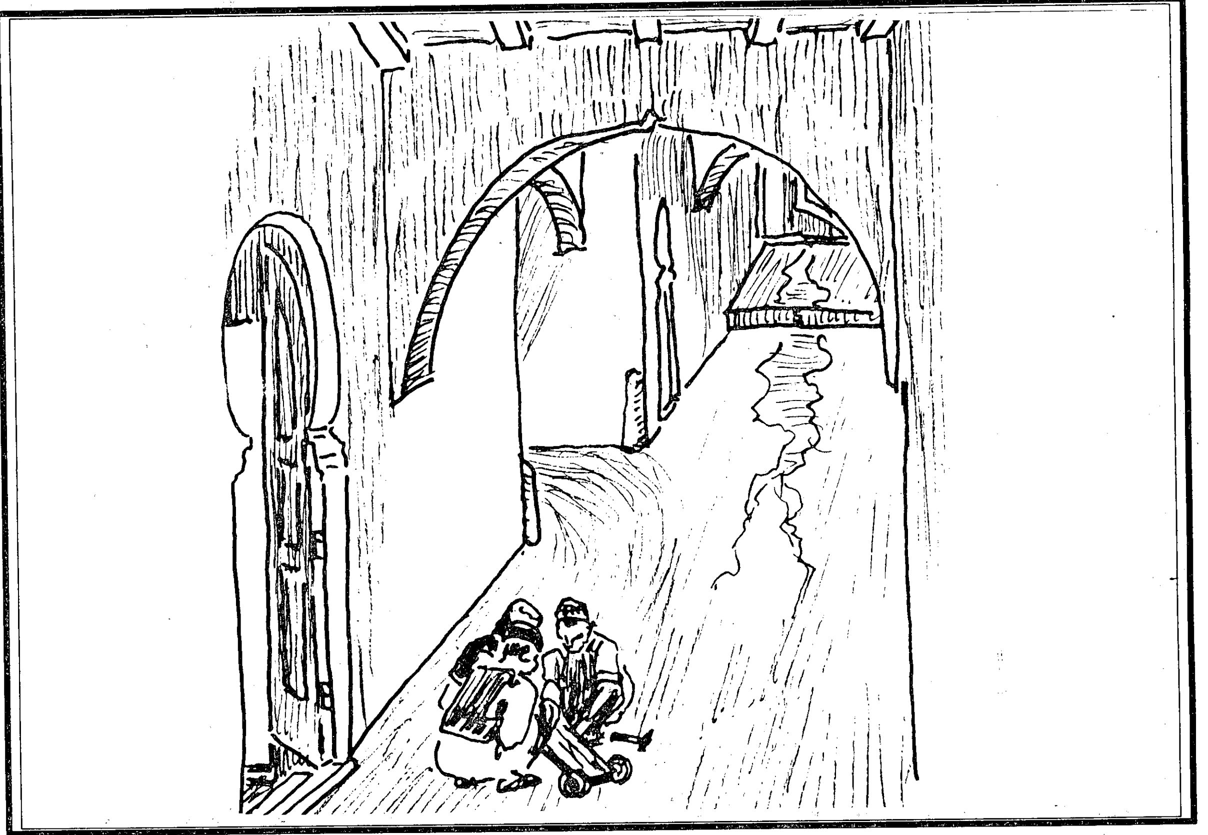
في ظل التسامح كانوا يعيشون :

جوانب من حياة اليهود في طرابلس القديمة

● رواية ورسوم : **فؤاد الكعبازي**

يعلم الجميع ، أو معظم الناس، ومن لم يعلم قد سمع أن اليهود فى طرابلس عاشوا مدى القرون محصورين داخل نطاق الحي الشمالى الغربى من المدينة القديمة المعروفة بالحارة ،ولكن تكونت من بينهم طبقة مترفة كره عناصرها عيشة الضيق والوساخة بين بناء جلدتهم الذين كان يطلق عليهم النعت الشعبى« معفنين » فأخذت هذه النخبة المتعفنة تزحف نحو القطاع الاسلامي المحيط بالحارة وذلك بدءا من شارع جامع محمود وحتى مشارف كوشة الصفار مع بعض الجيوب فى الأزقة المؤدية من زنقة الريفي إلى سوق الترك عن طريق شارع قوس المفتي.

واخطر ماوصل إليه الزحف السلمى البطئ فى الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية هو منزل جدى الذى أخلاه والدى لكبره بعد أن استقطع منه شقة علوية مناسبة مع مقدرة والدتى الفردية على التنظيف وفعلا لم تقدم أى عائلة أخرى على تأجيره لأنقراض فئة الخدم التقليدية بعد العهد التركى وقد احتكر المستعمرون الإنجليز وغيرهم « خدم المنازل » لمايدفعونه من أجور مغرية نسبيا وقد أجر والدى المنزل لعائلة يهودية فرعها البارز تاجر فسكنه مع صهره ولم يمض وقت طويل حتى أصبح البيت كناية عن ثكنة مدينة او بالأحرى معملا للتفريخ المكثف وكأنهم منذ ذلك الزمن وهم يفكرون فى إعداد الذين سيهجرون لاغتصاب فلسطين خطوة خطوة ،ومن أهم التركز اليهودى بجوارنا كان بزنقة« عريبى »أو « مهنى حسب الميول الشخصى للناعت - حيث سكنت عدة عائلات من الحارة منزلا كبيرا طرأ عليه ماطرأ علي منزلنا ولكنها كانت مكونة معظمها من أرامل يتقن عدة حرف نسائية جعلتهن مقبولات في الجوار إلاأن وجود أولئك النسوة سبب لنا نحن الأطفال مضايقة عملية بسبب كثرة استعمالهن المياه لعملية تنظيف ردهة المنزل الوسطي أى« وسط الحوش » لإزالة أوساخ الطبخ اليومي كعدم كفاية المطبخ للجميع مع العلم أن بالوعات المنزل كانت دائما مسدودةوذلك أهون الشرين، إذ عتبة البيت منخفضة نوعابالنسبة لمنسوب الزنقة وعندما تنسد المجارى تفيض القاذورات داخله إن كثرة الماء تجعل أرضية الزنقة الترابية موحلة بحيث يتعذر علينامواصلة لعباتنا مثل« البطش »

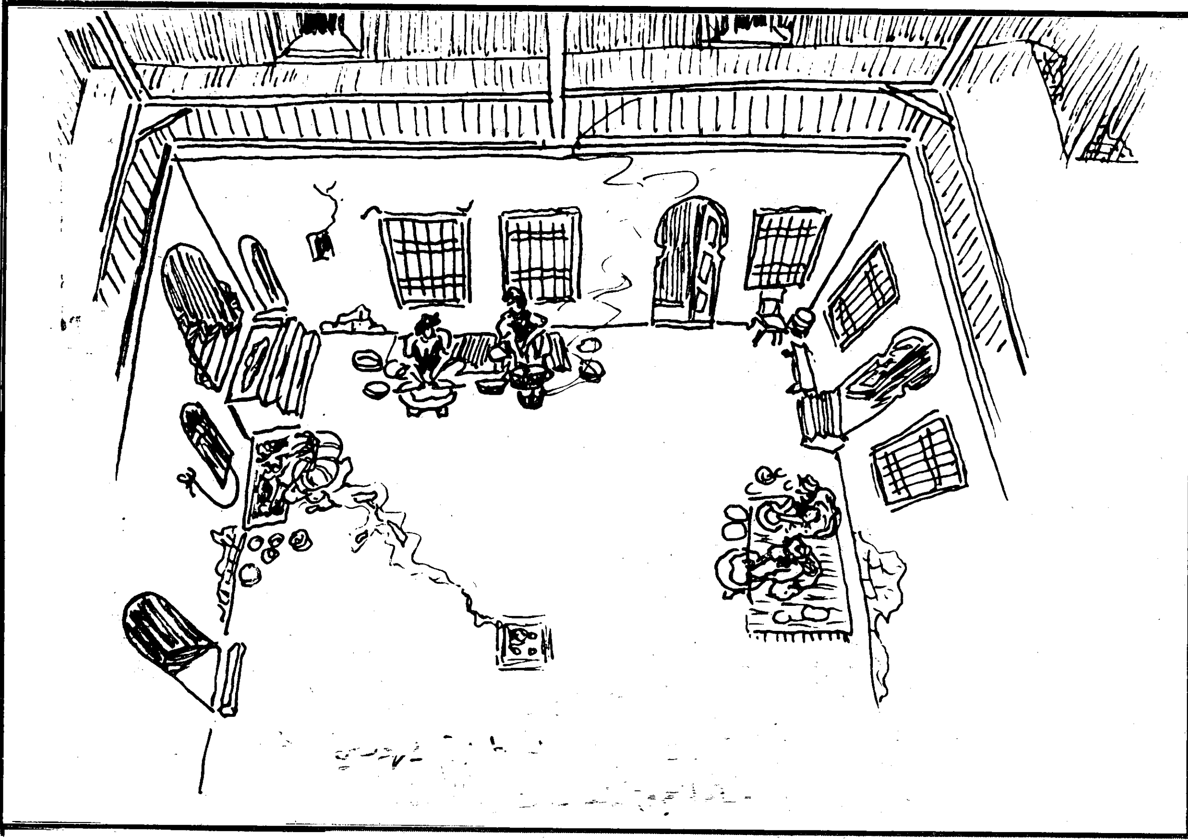


الماء في أرضية الشارع كان يفسد علينا اللعب في أكثر الأحيان

و«الزرابيط» وخاصة كواراطين الرصاص.

وعند اشتداد الأزمة بيننا وبينهن نلجأ الي السباب واللعن بالأساليب اليهودية النابية رغم أن أهلنا لم يقروا ذلك منا لأننا وكثيرا ماتكبد البعض منا عقابا ماديا قاسيا جعلنا لاننطق بالشتائم بل نكتبها على الجدران بالفحم فطلبت اليهوديات من القارئين من الجيران قراءة معنى كتاباتنا وكان معظم هؤلاء يقومون بالتدليس في الترجمة واستطاعت عدة مرات إحداهن فهم المقصود وتوصلت الى تسخير من يميز لها الخطوط حيث نال مسطّر العبارات« الطريحة » الشافية لغيظها وإن لم يقم أهل الشقي بواجب التأديب تشرع اليهوديات فى مقاطعة الأمهات المتهاونات تجارياً ووديا فيحجبن تقديم الخدمات المعتادة لهن مثل الإتيان بآخر صيحة فى سوق« الحرارة » أو الصياغة أو بيع الفرامل القديمة والرداوات المستعملة التى فاتت خططها فكنا بهذه الطريقة نعاني استعمارا إضافيا ربما هو افظع من السياسى لأنه يتحكم فى النفس وليس فى الإرادة وسببه الوضع الاجتماعي للمرأة وعجز بعولتهن عن إرضاء حاجياتهن على الوجه المطلوب وفعلا لم اتصور والدى وهو الشيخ الجليل أن يحمل الى السوق مكوكا« صياغات » أو حرافات والدتى أو يشتغل مكوكا طيعا بالعينات المختلفة بينها وبين الصائغ اليهودي..

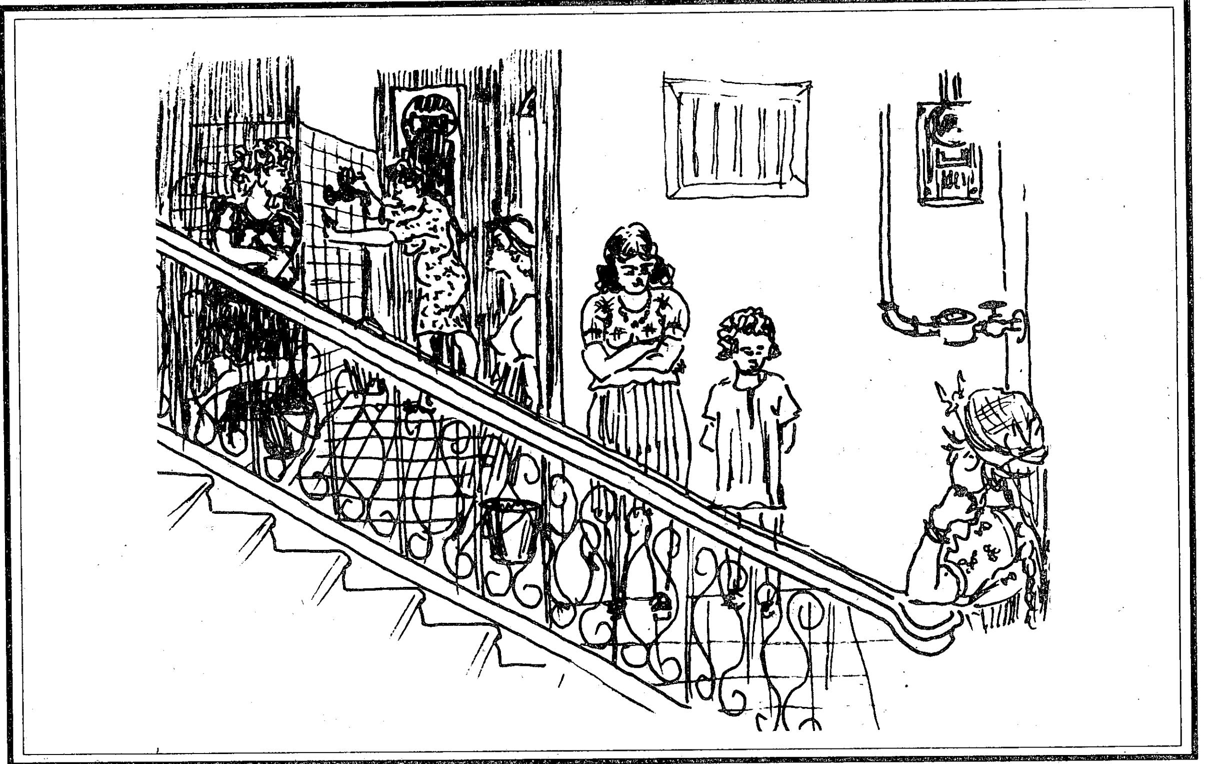
وربما قامت عائلتى ببعض هموم الجيرة اليهودية ـ أى وجه العكس الآخر فكانت ربات البيوت اليهوديات أو أطفالهن يعمدن إلى منزلنا لورود الماء الزلال وتجنب الصراعات



نظرة بعين عصفور داخل بيت يهودي مساء الجمعة عند إعداد طعام السبت

العامة على« شيشمة » البلدية امام مسجد بن موسى أو برأس زنقة « شداخ » والبون لابأس به بالنسبة للمرأة أو الطفلة المحملة باثنين من القرادل وشدة الإقبال على« شيشمتنا » نجم عن الإشاعة التى روجت بأن « النقال » يبصق فى كل« تناكة » يسلمها لمنزل يهودي انتقاما من غش صاحب حانته المفضل لمشروب « اللاقبى » ، لم يكن على ورود الماء أى قيد ماعدا وجوب« تنشيف » كل ما يترتب عليه بالطبع وقد أعفى ذلك أمى من العناية بمدخل البيت لأن النسوة اليهوديات من أمهر المجففات لكثرة مزاولتهن عملية التنظيف وكل الاشغال المنزلية التى تحتاج لإنحناء وإنطواء مع استعدادهن واستعداد جنسهن النفسى للانحناء فى الحياة من أجل البقاء الي حين. وأول إنحناءة تقوم بها الزوجة اليهودية في الصباح هى أن تحضر لزوجها نعله أو حذاءه عند عتبة الحجرة تعبيرا عن الطاعة وتبركا فى اليوم الجديد لتكون خطاه موفقه.

لاشك أن حسن معاشرة الليبيين لليهود فى طرابلس والمدينة القديمة خاصة جعلتهم يلتزمون بالعرف الذمى القديم الذى مكنهم من الهروب من ويل محاكم التفتيش الإسبانية والاستقرار فى الشمال الأفريقى عموما فى هناء وطمأنينة حتي تارت الفكرة الشيطانية لدى يهود أوروبة تحت شعار الوطن القومى بالأراضى المقدسة ولو لم تؤمن بها أغلبية سكان الحارة في حينها حتى نشأ بينهم وبين العملاء الصهيونيين المندسين بينهم شقاق بسبب التحريض من ناحية والابتزاز الوحشى من أجل جمع الأموال سرا



واردات الماء اليهوديات .. من منزلنا العتيق في المدينة القديمة



الزوجة اليهودية تقدم لبعلها نعله تعبيراً عن الطاعة والوفاء

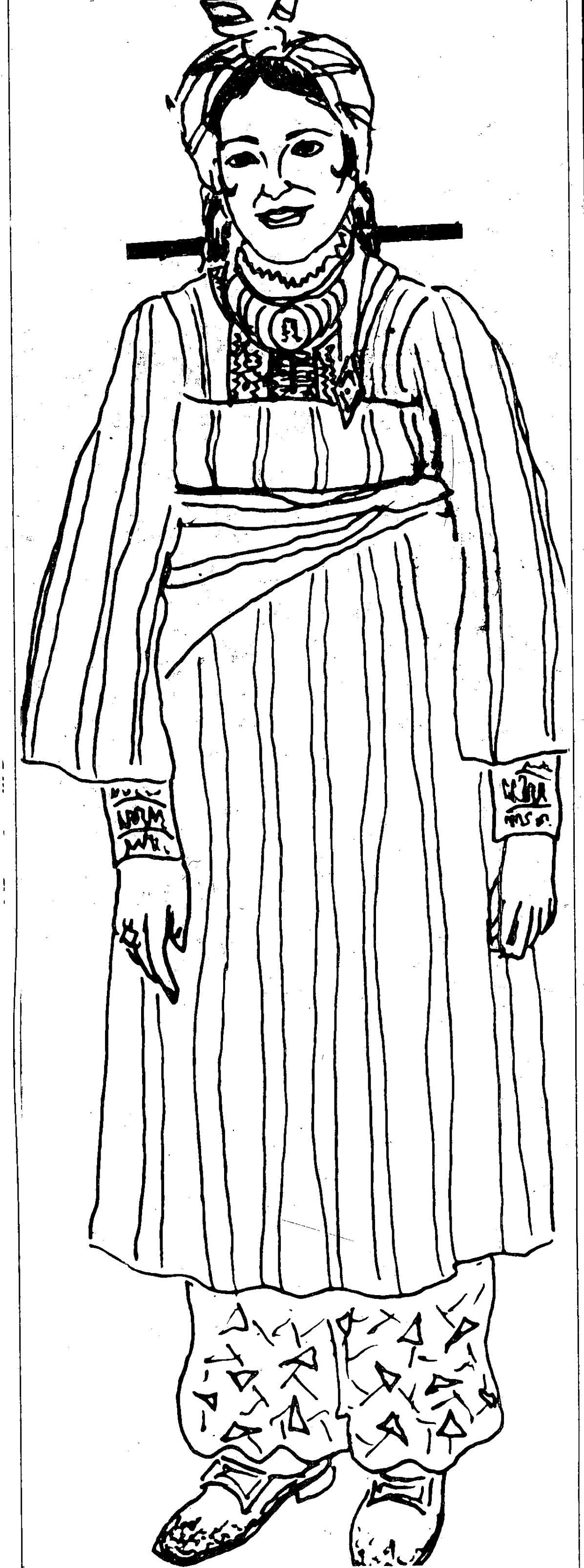
لمساعدة مشروع(هرتزل) البغيض.

ومن مظاهر الطاعة للعرف المحلي أكثر منه للحاكم عندما يكون مسلما ولاحظنا أنها لم تتغير عند إنحساره أن ثمة فروقاً فى الزي وخاصة بين النساء، إن دخول البذل الاوروبية مع الاستعمار وحد نوعا مابين الرجال، بل كان بعض الليبيين أسبق إلى السترة والسروال «البنطلون» من اليهود وقد حافظ مثلا هؤلاء على الطربوش العثماني أكثر منا نحن رعايا العثمانيين الأوائل حيث ملنا الي حمل الطربوش المصرى المبطن بالحصير كرمز صارخ للأبهة ولذا حاولت ان أورد هنا نموذجين مبسطين للبذلة النسائية التى كانت ترتديها «اللله» الطرابلسية عند مقابلة ضيوفها أو القيام بزيارة في غير مناسبة فرح حيث تستعمل «البذلة الكبيرة» ومقابلها المرأة اليهودية علي نفس المستوى وهو مستوى لايمكن تجاوزه إذا قصدت الست زيارة عائلة «مركانتية» من الايطالية «تجارية» ومعناها الاصطلاحى برجوازى واذا حصل تعدٍ قامت أثرها التعليقات اللاذعة مثل: شفتى المنجوهة... نسيت أنها يهودية وهى صفة تطلق حتى على اللواتى يعتنين بنظافتهن أيما اعتناء ،بل كانت اليهوديات يقمن بنظافة السيدات في الحمامات كذلك و«منقيات» مزججات للحواجب وماأدراك من العمليات التزينية التي تحتاجها المرأة ولايجوز للمرأة اليهودية ارتداء حولي الحرير بالتل والفضة ولبس «التسمال» من نفس الصنف ، كما يتعذر عليها لبس «القمجه» المخططة بل«سورية» خفيفة شفافة صيفا وشتاء لها كمان قصيران بسلك خانق على هيئة« تكة» ليثبت فوق المرفق (وكثيرا ماكنا نشاهد فى أيام البرد القارس ذراعي الواحدة منهم مزرقين) ولمواجهة أثر البرد اعتادت اليهوديات احتساء كأس صغيرة من ضروب«البوخة» الجهنمية المسكر لبث حرارة مضادة فى اوصالهن. ومن ثم كانت رائحة الكمون الممزوج بكحول «البوخة» تغطي نوعاً ما«زفرة» بدن اليهودية الناتجة ، حسب رأى كبارنا عن مكوثهن خمسة عشر يوما بدون اغتسال من الثمط.

واليهودية لاتحمل «خناق المجارات»(ولو أن اليهوديات أكبر بائعات للذهب) الا أنها تستعمل حزاما فضيا مذهبا فى خصرها مكونا من مربعات منظومة نظما جميلا بواسطة حلقات تؤدى مهمة «الرزات» ولكن حظر عليها لبس«الدبالج» فى معصميها والخلخال و«الترليك» المطرز.

واخيراً لاتجعل اليهودية من «حوليها» عند الالتفاف فيه «تعشيرة» أى طرفا خلفيا لستر الرأس«إذا دعت الضرورة الاجتماعية داخل المنزل عند مقابلة الأزواج أو كبار العائلة من الجنسين أى أنها لاتخضع لمثل هذه القيود الإسلامية.

ولم يفشل العرف الإسلامى مع اليهوديات إلا فى ناحية واحدة فى الزى ألا وهى حردة الرقبة الواسعة التى من شأنها إبداء عورة الصدر، خاصة لدى من لايستعملن المشد الداخلي للصدر وهي من الأمور المحرجة فى التعامل الشارعى إذ كان يرفض بعض أصحاب المتاجر من الورعين مبايعة النسوة غير المحتشمات والمجاملون منهم بحكم الجيرة أو العلاقة الشخصية لايتركونهن ينحنين لاختيار« ربطات» المعدنوس أو المشمش ولو كان الإنحناء واجباً عرفاً وتقليداً منذ القرون وذلك



زي المرأة الليبية



زي المرأة اليهودية



فضول .. ونظرات .. وأغنية لها معنى !

منعا لفضول العيون من تتبع أثرهن خصيصا وعلى رأسهم طبعاً ذلك الذى اعتاد كلما شاهد مشهوداً ردد نغمة معروفة للفنان القديم بشير فهمى التي أنا الآخر أغنيها لحنا ولفظا فى طفولتى حتى فهمت معانيها الاستعماريةأو بالأحرى.. العارية كما فهمت لماذا لطمتنى أمي على وجهى حتى دميت شفتاى أول مرة غنيتها بحضورها ؟!..

تراث
الموسيقا العربية

● د.عبدالله مختار السباعي

تميزت الموسيقا العربية خلال تاريخها الطويل بذلك الكم الهائل من التراث الموسيقى والغنائى والعلمى الذى ظهر عبر العشرات من القرون الماضية علي امتداد الساحة العربية وضم العديد من الأنماط الموسيقية المتمثلة فى القوالب الموسيقية الآلية والغنائية والمقامات والأوزان والآلات الموسيقية المختلفة الي جانب العديد من الرسائل العلمية والدراسات والأبحاث النظرية والعملية التى ألفها وكتبها فى هذا المجال كبار العلماء والفلاسفة والموسيقيون العرب والمسلمون وسنتعرف - فيما يلى - على هذه الأنماط الموسيقية من خلال تقديم دراسة موجزة للمراحل التاريخية المختلفة التى ظهرت فيها بدءاً من عصر ماقبل الاسلام (العصر الجاهلى):

عصر ماقبل الاسلام
العصر الجاهلى

خلال الفترة الزمنية التى سبقت الدعوة الإسلامية والتى عرفت بالعصر الجاهلي أجمعت المصادرالتاريخية والادبية علي العرب للموسيقا ومزاولة الغناء في المراكز الحضارية الهامة فى جنوب ووسط وشمال شبه جزيرة العرب، ففي الجنوب حيث نشأت أقدم الحضارات العربية ، وازدهرت فنون الموسيقا والغناء لم يقتصر مزاولتها علي المتخصصين فقط بل تعداه الي الأمراء والملوك ،حيث يذكر «فارمر» Faymey نقلا عن «أبى الفرج الاصفهاني» أن بعض ملوك تبع فى اليمن زاول الغناء وذكر منهم «ابن اليشرح وعلس بن زيد» وقد استعمل عرب اليمن بعض الآلات الموسيقية مصاحبة لغنائهم ومنها المعزف« * والكوس« **(1).

وفى وسط الجزيرة العربية ، شهدت الحجاز ، التي كانت مدنها خاصة «مكة ويثرب» من أهم المراكز الثقافية والتجارية ازدهاراً فى فنون الموسيقا والغناء وذلك بسبب الموقع الاستراتيجى الهام لهذه المراكز فى طرق القوافل التجارية التى كانت تجوب شمال وجنوب الجزيرة مما جعلها تتصل بالمراكز الحضارية القديمة المجاورة في اليمن وفارس وبلاد مابين النهرين ومصر، يضاف إلى ذلك أن عرب وسط الجزيرة

كانوا محبين للهو والمجون ومباهج الحياة من خمر وميسر ونساء واقتران هذه الرغبات بالموسيقا والغناء والرقص مما كان متوفراً في أماكن اللهو المخصصة أو داخل قصور الأمراء وكبار أغنياء القوم وأشرافهم.

كما اشتهر عرب وسط الجزيرة بحبهم الشديد للشعر والتغني به في شتى المناسبات والأغراض، وقد اشتهر سوق «عكاظ» الذي كان ينعقد في مواسم معينة ويقصده الشعراء والمغنون من شتى الأنحاء للمشاركة بإنشاد أشعارهم ومغانيهم (2) وإنشاد الشعر هو غناؤه كما يقول الشاعر:

تغن بالشعر إمّا أنت قائله

إن الغناء لهذا الفن مضمار(3)

ويقول محمود الحفني:«كان الترنم بالشعر أول أنواع الغناء الجاهلي»(4) ولايستبعد أن يكون غناؤهم هذا ترنما فطريا بسيطاً بعيدا عن التكلف والصنعة.. إلى جانب ذلك عرف عرب وسط الجزيرة «الحداء» وهو ما يؤديه حادي الإبل اثناء رحلات القوافل وأسفارها(5) هذه القوافل التي كانت تجوب أنحاء الجزيرة لنقل البضائع والمسافرين في رحلات تستمر أياما وليالي طويلة وسط صحراء مقفرة مترامية الأطراف ومن هنا جاء الحادي بغنائه المرسل الجميل لتسلية جمال القافلة خلال تلك الرحلات المضنية وحضّها علي مواصلة السير وتحمل مشاق الرحلة مع قلة الزاد والماء. وكان الحادي يقوم بغناء ما يحفظ من أشعار تناسب أوزانها خطوات الإبل ووقع أقدامها على رمال الصحراء في إيقاع رتيب متكرر مثل:

سيرى على رسلك سير الآمن

سيرى رداحاً ذات جأش ساكن

إنّ انشنائي دون عزمي شائق

ويلى بلائي واصبرى وكاين (6)

وإلي جانب الحداء عرفوا النصب وهو نوع من الغناء يمتاز بحسن الصنعة عن الحداء(7) وجاء ذكر الجواري المغنيات«القيان» ومزاولتهن للعزف والغناء في قصور الأمراء والأعيان وفي كثير من أماكن اللهو والمجون التي كانت منتشرة آنذاك .

إنَّ الأساطير العربية القديمة تزعم أن أول من شدا بالغناء قينتان لمعاوية بن أبي بكر أحد العماليق الأول ثم ذاع الغناء علي أثرهما بين القيان لأنهما كانتا كن تغنيان الشعر العربي بألحان فارسية ويونانية ويقال إن اسم إحداهما كان يعاد والاخرى يماد(8).

وقد انتشرت ظاهرة الجوارى المغنيات من العرب بعد تعلمهن فنون العزف والغناء على يد القيان الأجنبيات اللاتي كن يُجلبن من بلادهن الأصلية في فارس ومصر وبلاد الروم لهذا الغرض وبذلك يمكن اعتبار القيان الأجنبيات المدرسات الأول لهذا الفن في شبه جزيرة العرب، وهذا لايمنع من أنه كان للنساء العربيات في هذه المنطقة أغان خاصة بهن في عديد من المناسبات الاجتماعية والدينية تختلف كثيراً عن أغاني القيان الأجنبيات (9) وفي شمال شبه الجزيرة العربية وجد عدد من المدنيات العربية في الحيرة وفي بلاد الغساسة والأنباط،

ازدهر فيها الموسيقا والغناء وكانت اغلب هذه المراكز على علاقات وثيقة بعرب وسط الجزيرة حيث ربطتها طرق القوافل التجارية منذ القدم، ولذلك كان لعرب الشمال تأثير في موسيقا وغناء وسط الجزيرة وقد استعار الحجاز من الحيرة «غناء أكثر فنية من «النصب» الذى كان مستعملا حتى ذلك الوقت ويبدو كذلك أنه استعار منها العود ذا التجويف الخشبى بدلاً من المزهر ذى التجويف الجلدي (10).

ومن بين الآلات الموسيقية التى استعملت خلال العصر الجاهلي على امتداد شبه جزيرة العرب نجد من الوتريات العود، وعرف منه نوعان الأول ذو صندوق مصوت من الجلد والثاني من الخشب، والجنك (وهو آلة تشبه إلى حد كبير آلة الهارب) والمعزفة وهى آلة وترية ذات صندوق مصوت مربع الشكل ومنبسط يختلف عن صندوق العود ذى الشكل النصف الكمثرى.. وعرفوا أيضاً المزمار والقصابة من آلات النفخ الخشبية، والطبل والدف والكوس من الآلات الرقية، وأخيراً القضب والصنوج والجلاجل من آلالات المصوتة بذاتها (11).

صدر الدعوة الإسلامية

بعد ظهور الإسلام وانتشاره فى الجزيرة العربية حدث الكثير من التغيرات في المجتمع العربى من بينها دخول مؤثرات جديدة في الحياة العامة من أبرزها المؤثرات الفارسية والبيزنطية خاصة بعد فتح العديد من الأقاليم وضمها إلى الدولة الإسلامية الجديدة، وفي مجال الموسيقا والغناء استمرت طبقة القيان في مزاولة هذا الفن فى المجتمع الإسلامي الأول حيث كان أغلبهن فارسيات الأصل أو عربيات تأثرن بالفن الفارسي، وكان من أشهر قيان ذلك العهد «سيرين» الجارية المصرية التى أهداها الرسول إلى الشاعر حسان بن ثابت وهي إاحدى الجاريتين اللتين أهداهما الى النبي حاكم مصر المقوقس(12)

وفى عهد الخلفاء الراشدين ظهر إلى جانب القيان بعض الرجال المغنين من أصل فارسي أو من العرب الذين تأثروا باللغة الفارسية.. ويعتبر هؤلاء المغنون والمغنيات عاملاً أساسياً فى دخول الكثير من المؤثرات الخارجية فى تقاليد وأصول الموسيقا العربية آنذاك. وقد اشتهر فى هذه الفترة من صدر الإسلام من المغنين الرجال «طويس» او« تصغير طاوس» الذى يعتبر بحق أول المغنين الكبار فى هذا العهد و«أول من صاغ الالحان في صورة رقيقة عذبة .. وأول من صنع الهزج والرمل وكان الناس يضربون به المثل فيقال أهزج من طويس وكان لايضرب بالعود وإنما كان ينقر بالدف (13)

وعن طويس يقول الحفني« إنه أول من غنى بالعربية غناءً يدخل في الإيقاع» ويضيف بأنه قد «تعلم الغناء من سماعه لأسرى الفرس وهم يشتغلون فى المدينة»(14) وهذا مايدل على الأصل العربى لطويس، حيث إنه نقل فنه عن الفن الفارسي الذى لم يكن فنه الأصلي، وقد اشتهر فى هذه الفترة من صدر الإسلام والخلفاء الراشدين « عزة الميلاء» التى اخذت فنها عن

«سيرين» الجارية المصرية التى سبق ذكرها، كما اشتهر كل من «الدلال وهيث» وكانا معاصرين لطويس ومن تلاميذه، وهذه المجموعة من المغنين الرجال كانت من المخنثين المتشبهين بالنساء(15) مماجعلهم منبوذين في المجتمع بالرغم من نجاحهم فى فنون الموسيقا والغناء.

وقد اشتهر أيضا «سائب خاثر» الذى تتلمذ فى بداية حياته على غناء النائحات بالمدينة ثم أصبح يغني غناءه الخاص بمصاحبة التوقيع بالقضيب الذى ترك استعماله بعد تعلمه العزف علي العود (16) وقد حاز «سائب خاثر» شهرة فى المدينة باعتباره أول من استطاع أن يغني الشعر العربى فى مستوى لايقل عن غناء«نشيط» لألحانه الفارسية وينسب لسائب ابتكار إيقاع الثقيل الأول(17).

الدولة الأموية

تميز عهد الدولة الأموية باتساع الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً مما أدى إلى زيادة الاتصال بالمراكز الحضارية فى فارس ومصر وبلاد الإغريق، وأصبح للموسيقا فى ذلك العهد مكانة مرموقة معترف بها بين الفنون والعلوم الأخرى. وبالرغم من إنصراف بعض الخلفاء الأمويين الأول عن الموسيقا والغناء لاهتمامهم بامور تأسيس الدولة الجديدة بعد انتقال العاصمة الى دمشق، إلاّ أن التاريخ يذكر لنا اهتمام بعضهم الآخر بهذه الفنون وإباحتها فى قصورهم مما أدى إلى تذمر بعض المسلمين المتشددين من إلحاد؟! البلاط(18)

ومن بين الخلفاء الذين اهتموا بالموسيقا والغناء «يزيد الاول» الذى كان شاعراً وصاحب طرب ويعتبر أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء وآوى المغنين (19) وعبدالملك بن مروان بالرغم من تظاهره بكراهية الموسيقا والغناء وعدم أباحتهما علانية ، إلا أنه كان محبا لهما كحبه للشعر والشعراء فى الخفاء وبعيداً عن عيون الرقباء(20).

وقد بدأت الفنون والثقافة عامة تزدهر فى عهد الخليفة الوليد الأول» وأصبح للموسيقا مكانة مرموقة فى قصر الخليفة حيث استدعي أشهر مغني مكة والمدينة فى ذلك الوقت« ابن سريج ومعبد» ،وأنزلهما منزلة عظيمة فى قصره(21)

كان «بن سريُج» من تلاميذ «ابن مسجح وطويس» وبذلك يعتبر من المتأثرين بالفن الفارسي وأكبر المغنين فى ايقاع الرمل(22) بمصاحبة العود بعد أن أجاد العزف عليه ، أما «معبد» الذى ولد من أب زنجي فكان من تلاميذ سائب خانر ونشيط الفارسي وقد نال معبد شهرة فائقة فى عالم الموسيقا والغناء وكان له سبع اغان مشهورة عرفت بحصون معبد السبعة جعلت له مكانة رفيعة مرموقة في هذا المجال (23)

اما يزيد الثانى فقد أرجع للموسيقا مكانتها فى قصره بعد أن انحسرت عنها الأضواء فى عهد سلفيه «سليمان وعمر الثاني»وقد صرف ببذخ علي أرباب هذه الصناعة وأنزلهم فى بلاطه ومنهم «ابن سريج ومعبد ومالك وابن عائشة وبيدق الأنصارى وغيرهم(24) وقد اشتهر فى

تراث الشعب • العدد 1 • مسلسل 36 • السنة 17 • 1426 ميلادية / 1997ف

أواخر الدولة الأموية «يونس الكاتب» الذى اشتغل فى بداية حياته بالادارة وتعلم الموسيقا على يد «ابن محرز وابن سريج والغريض» ويعد يونس الكاتب أول من ألف كتباً في الموسيقا وأول من دون الغناء ، حيث لم يسبقه أحد فى تجميع الأغاني المعروفة في عهده وتدوينها مع ذكر معلومات وافية عن مؤلفيها وملحنيها، وكان ذلك في كتاب النغم وكتاب القيان (25) ومن مغنيات العصر الأموى البارزات إشتهرت أربع هن : جميلة وسلامة القس وحبابة وسلامة الزرقاء(26).

وقد تميزت الموسيقا العربية فى نهاية العهد الأموى بما يلي:

أولاً: زيادة الاهتمام بأرباب الموسيقا والغناء مما جعلهم يتمتعون بمكانة رفيعة فى المجتمع العربى آنذاك.

ثانياً: زيادة الأثر الفارسى فى الموسيقا العربية الذى كان من نتيجته دخول العديد من الألفاظ والمصطلحات الفارسية وبعض الآلات الموسيقية الفارسية أيضاً. يضاف إلى ذلك ظهور نظام مقامي جديد يتمشى مع الذوق العربى فى ذلك الوقت ناتجاً من امتزاج العناصر الوافدة مع تقاليد الموسيقا العربية.

ثالثاً: تطور أوزان الشعر العربى حيث أصبحت تميل الى السرعة والخفة مما أدى الى ظهور إيقاعات جديدة كالثقيل الأول والهزج والرمل والثقيل الثانى.

رابعاً: ظهور أول كتابين عربيين يعينان بهذا الفن وهما (كتاب القيان) و (كتاب النغم) ليونس الكاتب.

خامساً: ظهور قالب غنائي جديد يضاف إلى ماكان معروفاً من قوالب الغناء العربي فى العصر الجاهلي وصدر الدعوة وهو (الصوت) والصوت عبارة عن مجموعة من الأبيات الشعرية موحدة القافية يتراوح عددها مابين البيتين والستة أبيات تلحن فى أحد المقامات الموسيقية المعروفة آنذاك ويؤديها صوت منفرد.

العصر العباسي

يعتبر العصر العباسي بحق العصر الذهبى للعلوم والفنون العربية الإسلامية خاصة الموسيقا التي ازدهرت فى هذا العصر بشكل لم يسبق له مثيل . والمتتبع لتاريخ الموسيقا فى هذا العصر يجد أن اكتمال هذا الفن ووصوله لدرجة عالية من الإتقان كان بفضل الاهتمام الكبير الذى أولاه خلفاء بنى العبّاس للموسيقا وأربابها منذ تأسيس دولتهم ، وبفضل الجهود الكبيرة التى بذلها عدد من الموسيقيين البارعين والعلماء المقتدرين لإرساء دعائم هذا الفن على أسس متينة من العلم والمعرفة والتجربة.

وقد بدأ الاهتمام بالموسيقا والغناء منذ بداية الدولة العباسية على يدي الخليفة «أبي العباس السفاح» الذى أبدى اهتماماً بالموسيقيين والمغنين وفتح لهم قصره وأغدق عليهم العطايا والهبات المالية الكبيرة (27) بالرغم من إنشغاله الشديد بتأسيس أركان الدولة الجديدة ونشر سلطانها فى شتى البقاع.

وبعد «أبي العباس السفاح» توالى اهتمام الخلفاء العباسيين بالموسيقا والغناء خاصة

بعد أن بنى «أبو جعفر المنصور» مدينة بغداد لتصبح العاصمة الجديدة للدولة ومركزا هاماً من مراكز الإشعاع الحضارى والثقافى فى ذلك الوقت (28).

وقد أصبحت هذه المدينة بقصورها العالية ودورها الجميلة* وحدائقها الغناء قبلة الأنظار ومحجاً لعدد كبير من العلماء والموسيقيين الذين أقبلوا عليها من كل حدب وصوب يتنافسون على طلب العلم والتحصيل ومزاولة فنون الموسيقا والفوز برضاء الخليفة والحصول على هداياه وعطاياه المالية.

وقد ساعد علي هذه النهضة، حالة الاستقرار السياسى والاجتماعى، والرخاء الاقتصادى والرفاهية التي كانت مناخاً مناسباً لنهضة وتطور العلوم والفنون العربية والإسلامية وتقدمها علي مدى عدة قرون إلى جانب ذلك تغير نظرة المجتمع العربى في العصر العباسى للموسيقا والغناء، فبعد أن كانت، في السابق، مهنة وضيعة مقصوراً مزاولتها على العبيد والجواري، أصبحت نشاطاً يزاوله أشراف وأعيان القوم ويفاخرون به.

وعن هذه الظاهرة يقول محمود الحفني لم يعد العرب ينظرون الى الموسيقا بشطر العين. أو يتأبون احترافها، بل إن من أبناء أشرافهم من دخل فى زمرة هذه الصناعة، فمن أساطينها «ابن جامع» الذى يتصل نسبه بقريش، بل لقد زاول هذه الصناعة بعض أمرائهم كإبراهيم بن المهدي» (29).

وقد ساهم في النهضة الموسيقية في العصر العباسى تأسيس الخليفة المأمون «لبيت الحكمة» ليصبح مركزاً علمياً هاماً لترجمة تراث الإغريق من كتب ومؤلفات فى الفلسفة والعلوم والفنون التى من بينها الموسيقا (30) ولم يقم العرب بالترجمة الحرفية فقط لهذه العلوم والفنون بل قاموا بتصحيحها ونقدها والتعليق عليها والإضافة إليها مما أثرى العلوم والفنون الإنسانية منذ ذلك الوقت. وقد ساهمت الترجمة فى دخول بعض المؤثرات اليونانية فى الموسيقا العربية خاصة فى مجال دراسات السلم الموسيقي.

وإلي جانب الترجمة من العلوم الإغريقية، كان هناك عدد من العلماء والفلاسفة العرب المسلمين كتبوا الكثير من الرسائل والبحوث فى شتى مجالات الموسيقا النظرية والعملية مما ساهم فى نهضة العلوم الموسيقية فى ذلك الوقت ومنهم:

1ـ الخليل بن أحمد: كان عالما في أصول اللغة العربية ومتبحراً في علوم الموسيقا والشعر « وهو معروف في كل مكان بجمعه وتنظيمه للمعجم العربى الأول: كتاب العين، ومنظم قواعد العروض، وقد نشر أبحاثه فى علم الموسيقا في كتابين: كتاب النغم وكتاب الإيقاع» (31).

2ـ أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكنْدي: كان عربيا شريف النسب تفرغ للدراسه والبحث العلمى كما اهتم بدراسة السلم الموسيقي العربي آنذاك وترك لنا عددا من المؤلفات نذكر منها: رسالة في أجزاء خُبرية الموسيقا، رسالة في ترتيب الأنغام، رسالة في المدخل لصناعة

● تراث الشعب ● العدد 1 ● مسلسل 36 ● السنة 17 ـ 1426 ميلادية / 1997ل

الموسيقا (32).

3ـ محمد وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر: كانوا علماء رياضيين ومن هواة علوم الهندسة والفلك والموسيقا عملوا فى بيت الحكمة علي ترجمة تراث الإغريق ، ولهم رسالة في علوم الآلات الموسيقية بعنوان الآلة التي تزمر بنفسها(33).

4ـ أبو نصر محمد بن طرخان الفارابى:« من أكبر فلاسفة العرب دراية بعلوم اليونان ، وكان موسيقياً ضليعاً يجيد العزف بالعود ، وقد وضع كثيراً من الكتب فى هذا الفن أشهرها«كتاب الموسيقا الكبير»(34) درس الفارابى فى هذا الكتاب علم الصوت ، ومسافات وأجناس السلم الموسيقي العربي، كما بحث وفصل عدداً من الآلات الوترية والنفخ الهوائية المعروفة والمستعملة في عصره نذكر منها: العود ، الطنبور ، القانون ، المزامير بأنواعها.

والي جانب هؤلاء العلماء نجد عدداً آخر من المغنين والموسيقيين عاشوا فى بلاط خلفاء بني العباس ووجدوا منهم كل رعاية واهتمام وتشجيع مما أتاح لهم فرصة التفرغ للإبداع والوصول إلى قمة النجاح والتألق في هذا المجال بعد أن توفرت لهم سبل الحياة الكريمة المرفهة وسط قصور فارهة وحدائق غناء ومجالس للطرب واللهو لاتنتهى ، وفيما يلى لمحة موجزة عن أشهر هؤلاء الفنانين»(35):

1ـ أبو يحيى بن ميمون حكم الوادى: أول الموسيقيين الذين ورد ذكرهم في هذا العصر ، تتلمذ على يد مواطنه (عمر الوادي) وعاصر آخر الخلفاء الأمويين ثم عاش فى بلاط بعض الخلفاء العباسيين واستطاع أن ينافس أشهر موسيقى البلاط وهما ابن جامع وإسحق الموصلي.

2ـ أبو وهب عبدالله بن وهب سياط(739ـ785م): أجاد العزف على آلة العود وتتلمذعلى يد «يونس الكاتب وبردان» اشتهر في عصره بحسن غنائه وتلاحينه ، وقد تتلمذ عليه أشهر موسيقيى العصر العباسى «إبراهيم الموصلى وابن جامع».

3ـ أبو القاسم إسماعيل بن جامع: كان عربياً من قريش تتلمذ على يد زوج أمه «سياط» وعاصر فى بداية حياته « الخليفة المهدى» ثم عاش فى بلاط ابنه«هارون الرشيد» وقد كان التنافس على أشده بين ابن جامع وإبرهيم الموصلي للفوز برضاء الخليفة وتميز ابن جامع بصوت جميل وحسن أداء الي جانب إجادة العزف علي العود.

4ـ إبراهيم الموصلي(742ـ804م) اصله الفارسى ومولده ونشأته فى الكوفة جعلته يوفق في جميع التراثين العربى والفارسى ، بعد تجواله فى فارس استقر فى بغداد وتتلمذ على يد«سياط» وقد عاصر الخليفة المهدى وابنه هارون الرشيد الذى احتضنه وقربه منه حتي أصبح نديمه المفضل ولذلك لقب «بالنديم» وهى أعلى درجة يتحصل عليها موسيقي فى ذلك ، وكان إبراهيم الموصلي يتمتع بموهبة فذة وأذن موسيقية حساسة وقدرة فائقة علي التلحين والغناء إلى جانب اجادته العزف علي العود وينسب له أول معهد موسيقي متخصص فى تخريج القيان المغنيات ، وكان يمثل

المدرسة التقليدية في الغناء العربى ويحارب فى سبيل الحفاظ عليها من حركة التجديد بكل قوة. وقد تصدى بذلك لإبراهيم بن المهدي الذى تزعم المدرسة الحديثة في الغناء.

5. منصور زلزل(......-791م): لقب بالضارب لاجادته العزف علي العود الذى تميز به أكثر من الغناء ، وينسب إليه ابتكار آلة العود الكامل الذى بدئ فى استعماله بدلاً من العود الفارسي منذ ذلك الوقت ، كما ينسب إليه إضافة نغمة الوسطى المحايدة (22:27) للسلم الموسيقي العربي إلى جانب وسطى الفرس القديمة(36)

6. ابراهيم بن المهدى(أبوإسحق) : وهو الأخ الاصغر لهارون الرشيد وقد بدأ مبكراً في تعلم الموسيقا والعزف علي العود مع أخته غير الشقيقة «علية» على يد أمه وقد اشتهر بزعامته للمدرسة الابتكارية القديمة وأنصارها. وعندما كان إبراهيم بن المهدى يلام علي التغير الذي أحدثه فى فن الغناء العربى كان يقول:« أنا ملك وابن أغني كما أشتهي ويطيب لى غناؤه ، وإنما أنا أعمل ذلك تطرباً لا تكسباً وأغني لنفسي لا للناس فأعمل ما أشت(37)

7. إسحق الموصلي: هو أبو محمد ابن ابراهيم الموصلي، وقد كان ذا ثقافة عالية وإلمام كامل بعلوم اللغة والتاريخ والأدب. تتلمذ على يد ابيه إبراهيم وخاله زلزل وأصبح الموسيقي الأول ونديم البلاط ، بعد وفاة ،والده ، في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون وفي عهد الواثق، وقد تميز إسحق إلى جانب تفوقه في المجال العملى للموسيقا بكتابة وتأليف عدد من الرسائل والكتب فى هذا المجال بدون الرجوع لتراث الإغريق المترجم إلى العربية آنذاك.

والى جانب هؤلاء الموسيقيين والمغنين العظام ، اشتهر فى العصر العباسي عدد من القيان نذكر منهن(بصبص وعريب وعبيدة الطنبورية وبذل ودنانير وعاتكة وتيم الهاشمية)..وغيرهن

وفيما يلي أهم ماتميزت به الموسيقا العربية في العصر العباسي:

1. أصبحت الموسيقا علماً نظرياً وعملياً جديراً بالبحث والدراسة ، كتب فيه العديد من المؤلفات والرسائل والبحوث الجادة التي كان لها الأثر الكبير في وضع الأسس والقواعد العلمية لهذا الفن.

2. زيادة المؤثرات الخارجية خاصة الإغريقية بعد تأسيس «بيت الحكمة» لترجمة مؤلفات الإغريق إلى اللغة العربية ، وقد ظهر هذا الأثر في كتابات الكندى وابن سينا والفارابى.

3. زيادة عدد المقامات والإيقاعات والآلات الموسيقية المستعملة فى الفرق الغنائية العربية.

4. تأسيس أول معهد موسيقي دراسي متخصص على يد إبراهيم الموصلي الذى يعتبر بحق وأضع الأسس الأولى لمناهج التعليم الموسيقي العربي.

5. ازدهر القالب الغنائي المعروف(بالصوت) وأصبحت له الصدارة في مجالس الخلفاء والأمراء من بني العباس ويزخر كتاب الأغانى لأبي الفرج الأصفهاني بذكر المئات من الأصوات التي تغنى بها كبار المغنين العرب

في هذا العصر .. وقد تم في عهد الخليفة هارون الرشيد اختيار (المائة صوت المختارة) من أجمل ألحان العرب في ذلك الوقت ، وقد قام باختيارها بتكليف من الرشيد كل من إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليح ابن العوراء (38)



الهوامش والمراجع :

1. هـ . ج . فارمر ، تاريخ الموسيقا العربية ، ترجمة حسين نصار ، سلسلة الألف كتاب رقم« 7 »، القاهرة : مكتبة مصر ،دار الطباعة الحديثة (د.ت) ص9

* المعزف آلة ذات أوتار مطلقة(الصنج) (الهارب)

** الكوس نوع من الطبول الكبيرة.

2. هـ . ج فارمر. تاريخ الموسيقا العربية ، مرجع سابق ص10
3. عبدالكريم العلاف ، الطرب عند العرب ، بغداد: منشورات المكتبة الأهلية 1963م.ص2
4. محمود أحمد الحفني، الموسيقا العربية وأعلامها من الجاهلية إلى الأندلس ، القاهرة : سلسلة التاريخ الموسيقي (بدون معلومات نشر) 1951م ص20.
5. المرجع السابق .ص19
6. عبدالكريم العلاف، الطرب عند العرب ، مرجع سابق ص2.
7. هـ .ج . فارمر . تاريخ الموسيقا العربية ، مرجع سابق ص23.
8. عبدالكريم العلاف ، الطرب عند العرب ، مرجع سابق ،ص4.
9. المرجع السابق، ص6.5.
10. هـ .ج. فارمر . تاريخ الموسيقا العربية ، مرجع سابق ص12.
11. المرجع السابق ص26.25.
12. محمود الحفني، الموسيقا العربية وأعلامها ، مرجع سابق ،ص27.
13. عبدالكريم العلاف ، الطرب عند العرب ، مرجع سابق ، ص14.
14. محمود احمد الحفني ، الموسيقا العربية وأعلامها ، مرجع سابق .ص30.
15. المرجع السابق ص30.
16. المرجع السابق ،ص31.
17. هـ .ج.فارمر. تاريخ الموسيقا العربية ، مرجع سابق ص69.
18. هـ .ج.فارمر. تاريخ الموسيقا العربية ، مرجع سابق ص76.
19. المرجع السابق ص76.75.
20. المرجع السابق ص76.
21. المرجع السابق ص77.
22. المرجع السابق ص97
23. المرجع السابق ص99.98.
24. المرجع السابق ص78.
25. المرجع السابق ص101
26. المرجع السابق ص103.
27. هـ .ج.فارمر، تاريخ الموسيقا العربية مرجع سابق .ص110
28. المرجع السابق ص110
29. محمود أحمد الحفني ، الموسيقا العربية وأعلامها ، مرجع سابق ص36
30. المرجع السابق ص38
31. هـ .ج.فارمر. تاريخ الموسيقا العربية ، مرجع سابق ص148
32. المرجع السابق ص149، 150

32. المرجع السابق ص149، 150

33. المرجع السابق ص150، 151

34. محمود أحمد الحفنى ، الموسيقا العربية وأعلامها ، مرجع سابق ص38-39

35. ملخصة وبتصرف عن: هـ.ج.فارمر. تاريخ الموسيقا العربية ، مرجع سابق ص133، 148

36. المرجع السابق ص140

37. عبدالكريم العلاف، الطرب عند العرب، مرجع سابق ص35

38. محمود الحفني« الموسيقا العربية من قبل الإسلام حتى سيد درويش» محيط الفنون ، القاهرة : دار المعارف(د.ت) ص71

أثر الإسلام
في تكوين المجتمعات الأفريقية

• محمد المبروك يونس

تحرص هذه الدراسة على إبراز التأثيرات العميقة التى أحدثها الدين الإسلامي فى البنية الأساسية للمجتمعات الأفريقية ليس فقط فيما يتعلق باعتناق الأفارقة للدين الجديد أو بتخلصهم من الديانات الوثنية، وإنما للمظاهر الحضارية الكثيرة التى عرفتها المجتمعات الأفريقية فى ظل الإسلام..

ولعل هذا الجانب المهم فى تاريخ أفريقيه والذى يعد انقلابا هاما تم عبر حقبة تاريخية امتدت من العصور الوسطي وبعض من العصور الحديثة، لم يجد العناية المطلوبة من قبل الباحثين والمؤرخين ، رغم الجهود والدراسات العديدة التى اقتصرت علي التتبع التاريخى لمراحل انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية دون الغوص فى التأثيرات، العميقة التى أحدثها الإسلام في المجتمعات الأفريقية..

ومايستلفت النظر فى هذه التأثيرات أنها شملت النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب الأفريقية..

فقد ظهر واضحا الأثر العميق الذى أحدثه الإسلام في إفراز ممالك وسلطنات أفريقية إسلامية بلغت درجة كبيرة من التحضر والازدهار (1) وهو ماعبر عنه المؤرخ الإنجليزى (بازل ديفدسون)B.Davidson بمشاعل الضوء فى مختلف الشؤون مؤكدا أن حضارة أفريقية التي ارتبطت بالإسلام حركتها عوامل أفريقية من بدايتها كما تشهد بذلك الممالك الأفريقية ، وهي حضارة تقرر انتصاراً لشعوب غير معروفة قامت فى داخل القارة وحققت ذلك الانتصار..

بل وبفضل هذه الممالك الإسلامية ازداد انتشار الإسلام في القارة الأفريقية وأصبح دين الغالبية، وكان لقضاء المسلمين علي الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية أثره فى انكماش الممالك المسيحية فى البلدان الأفريقية وسقوطها فيما بعد لتتسع دائرة انتشار الدين الإسلامى بين الأفارقة..

ويعد القرن السادس «الميلادى» عصر تأسيس السلطنات الإسلامية التي شهدها سودان وادي النيل مثل مملكة العبد لاب والفونج وسلطنة دارفور، وكانت هذه السلطنات الإسلامية علي علاقات وثيقة مع الممالك فى مصر والمغرب وبغداد (2).

ومن نافلة القول فى هذا الصدد أن الاسلام لم ينتشر فى المناطق الأفريقية كرهاً أو تحت

الحراب كما تصوره ـ بعض الكتابات الأوروبية الحاقدة ـ بل تغلغل فى المجتمعات الأفريقية بالأساليب السلمية ـ والإقناع دون ضغط أو إكراه ، بل إن الدين الإسلامى قد تفرد دون غيره من الديانات السماوية بأنه أمد المجتمعات الأفريقية بالعزة والنشاط والاعتماد على النفس واحترام الذات لدرجة أصبح فيها الأفريقيون ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود وعلى المسيحية على أنها دين البيض (3).

وإذا ما أخذنا فى الاعتبار القول بأن المجتمعات الأفريقية لم تكن لها فلسفات محددة كما كان الحال عند بعض مناطق العالم الأخرى المعاصرة لها منذ القدم ، فحين « اعتنقت هذه المجتمعات الإسلام لم تنظر إليه فقط على إنه مجرد نور يخطف العينين الى السماء ، وإنما نظرت إليه ـ وقد ساعدتها طبيعة الإسلام نفسه ـ على أنه الشئ الكلي الذى ينظم الحياة ، وعلى أنه الفخر الوحيد الذى يملأ حياتهم والذى لايحكم عليهم بالقهر والسلبية أو يقف وحيدا منزويا عن كل مايمس أدق شؤونهم »(4)

ولقد استطاعت المجتمعات الأفريقية بعد اعتناقها الإسلام أن تكسب نظرة جديدة الى الحياة ، والعلاقات الاجتماعية ، وهو أمر جعل بعض المؤرخين الأوروبيين يعترفون صراحة بأن «الإسلام هو الأصل فى قيام الدول الأفريقية الإسلامية وازدهار حضارتها القومية »(5) فهذا المؤرخ الفرنسي (Goyilly) يشدد على أنه بالاسلام يبدأ العصر التاريخى لأفريقية السودا ء(6).

وتتضح هذه الصورة من خلال ظاهرة أفرزها انتشار الإسلام في القارة الأفريقية وتمثلت فى قيام الممالك الأفريقية الإسلامية التى لم تصل إلى ماوصلت إليه من عظمة وقوة إلا بعد أن أضحى الإسلام عصب قوتها الروحية والمادية (7)، وبفضله انتقلت من حياة المجتمعات القبلية المتفككة إلى مجتمع الدولة المركزية.

وبتحليل أبعاد هذه الظاهرة نلمس بوضوح أن تأثير الإسلام لم يكن وقفا على الجماعات العربية ، وإنما أسهم فيه السكان المحليون من الأفارقة بعد أن أسلموا وأدوا دورهم فى نشره وبسطه بين القبائل الوثنية ، فهم بذلك لايقل دورهم عن الدور قام به العرب في التبشير بالدين الاسلامى(8).

ولن نحاول هنا أن نتعرف لمسار ونشأة جميع تلك الممالك والسلطنات الأفريقية الإسلامية التى شهدتها القارة ، فذلك يحتاج الى دراسة تفصيلية لكل مملكة على حدة، لكن مايهمنا بحق هو تباين التأثيرات التى أحدثها الإسلام فى نسيج المجتمعات الأفريقية.

حيث نلمس بوضوح تأثر الممالك الأفريقية الإسلامية بالتنظيمات السياسية والإدارية وكافة المظاهر الإسلامية الأخرى ، بحيث حدث الامتزاج الكامل بين النظم الإسلامية وبين الأنماط الأفريقية المحلية ، وتكون عنصر جديد يوائم بين ماغرسه الإسلام من ثقافة وبين الموروث من التقاليد والأنماط الأفريقية ،بحيث برزت الشخصية الأفريقية فى إطار اسلامى ولم يحدث ذوبانها وهذا التأثير الحضارى المميز حدده المؤخ سبنسر ترمنجهام بقوله: (الإسلام + الحضارة الافريقية = تفاعلاً مركباً أخيراً (9).

وبتتبع التغيرات الحضارية التي حصلت بفضل الإسلام يتبين الآتي:

1ـ مرحلة بداية الاندماج ، وقد بدأت بإسلام السلاطين والملوك الأفريقيين وذوى النفوذ وجمعهم بين التقاليد الإسلامية والتقاليد المحلية.

2ـ مرحلة الاندماج الكامل، وبدأت بدخول معظم الأفريقيين فى الإسلام وتعلمهم اللغة العربية وتعمقهم فى فهم الإسلام وقيام سلطنات ملوكها مسلمون ورعيتهم مسلمة(10).

ولعل الممالك الإسلامية التى أقيمت فى مناطق غرب أفريقيه تعطى النموذج الواضح للتأثير الذى أحدثه الإسلام فى تكويناتها السياسية والإجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فقد كانت« تعاليمه نموذجاً لأى تنظيم إدارى أو مالى أو قانونى أو عسكرى ، فكانت الوزارة فى هذه الإمبراطوريات تنقسم إلى إدارات نوعية تعادل مايعرف الآن بوزارات الداخلية والاقتصاد والعدل ، كما ربط الإسلام اجتماعيا حواضر ومدن هذه الممالك بعضها ببعض عن طريق التجارة » (11).

ولقد كانت المجتمعات الأفريقية تؤسس حياتها علي عاملين رئيسيين هما القبيلة «العصبية» والأرض التى تعيش عليها ، لكن الإسلام غير من هذا وحلت الأخوة فى الإسلام محل العصبية وأصبح الإنسان الأفريقى يرتبط بالمسلمين جميعا (12) من ناحية وتجاوز التنظيم البسيط للمجتمعات العشائرية محققا تآخي القبائل فى ظل وحدة الدولة الواحدة بدلا من التجمع القبلى القديم من ناحية ثانية(13).

ومن الواضح أنه فى ظل الإسلام عرفت الممالك الأفريقية أنظمة سياسية راقية ودساتير استندت على الشريعة الإسلامية ووفق سياق السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية (14). بل وتجمع الدراسات على أن الممالك الأفريقية الإسلامية قد تأثرت بشكل كبير بالتعاليم الإسلامية فى اختيار الحاكم والحرص على القواعد التى يبنى عليها شرعية حكمه، فكان لايختار حاكماً إلا من عرف بنظافة اليد وعفة اللسان وبمساعدة الناس وما إلى ذلك(15).

ولقد لاحظ ابن بطوطة قلة المظالم لدى السلاطين الأفارقة فهم كما يقول « أبعد الناس عنه والسلطان لايسامح أحدا فى شئ منه ، وعدم تعرضه لمال من يموت فى بلادهم وكذلك مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها فى الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها وازدحام المساجد بالمصلين حتى إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلي المسجد لم يجد موضعا ، من حرصهم الشديد على حفظ القرآن وتعاليم الدين(16).

وبفضل الإسلام تخلي الأفارقة عن معتقداتهم الموروثة وطقوسهم المتعارف عليها فوجدوا في هذا الدين البديل عن معتقداتهم الوثنية، وأصبح المسجد فى القرية منارة للعلم ومكاناً للعبادة ومدرسة لتحفيظ القرآن، بل هو مكان للاحتفالات الدينية والاجتماعية (17).

فالرسالة الإسلامية إيجابية ليس لكونها دينية فقط وإنما هي اجتماعية أعطت الإنسان الأفريقى الشعور بالوحدة الاجتماعية فبالإسلام لم يعد الإنسان يعيش

فى الأدغال محتقرا ، بل ارتقى مستواه ، وتلاشت تلك الرذائل ، وهي أكل لحوم البشر وتقديم الإنسان قربانا ، فالذين كانوا يعيشون عراة بدأوا يرتدون الملابس ويتأنقون في مظهرهم ، والذين كانوا لايغسلون بدأوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال ، لأن الشريعة المقدسة تأمرهم بالطهارة(18).

كما رفع الإسلام من مستويات شعوب المناطق الأفريقية من الناحية الإنسانية والأخلاقية ، وجرد بعض مظاهرها من طابعها الجاهلى الوثني(19) ، فكان النظام الإسلامى بديلا راقيا حقق المساواة بين جميع الأجناس ، ولم يرسم خطا لونيا ، بل كان التآخي وتذويب الفوارق من الأمور المتميزة التى حببت الأفارقة فى الدين الإسلامى ، مما ساعد على تزايد اندماج القبائل بعضها فى بعض لتصير أمما وممالك إسلامية لها شأن كبير فى التاريخ الإنسانى ، حيث شهدت أفريقيه أزهى عصورها ، وعرفت لأول مرة علاقات وصلات واسعة مع أقطار العالم (20).

فالإسلام تكامل انتشاره في المناطق الأفريقية بفضل حركة الحماس الواسعة التى تبناها السكان المحليون الأفارقة تارة باقتداء جماعى بزعيم ، أو ملك اعتنق الإسلام وتارة بكيفية فردية ، وتارة أخرى في عمليات جهاد يتولاها مسلمون أفارقة(21).

ولقد اشتهر السلاطين المسلمون بالجهاد فى سبيل الدين الإسلامى ليس فقط كوسيلة لمحاربة الوثينة ، وإنما للتصدي للأطماع الأوروبية التى استهدفت المناطق الأفريقية فى القرن التاسع عشر.

وتتفق جميع الآراء التى اهتمت بهذه الميزة التي اختص بها الإسلام فى المناطق الأفريقية على أن أسباب تنامى فكرة الجهاد تعود الى جملة من العوامل والدوافع يمكن تحديدها في الآتى : (22)

1. انتشار المراكز الإسلامية فى مناطق غرب افريقية ، مما أدى إلى إبراز فكرة الجهاد وانتشارها بخاصة عندما اختلطت العقيدة الإسلامية بطقوس الوثنية عند بعض المسلمين الأفارقة.

2. تلقي الزعماء الأفارقة لتعليمهم في مراكز الإشعاع - مثل الأزهر فى مصر - أدى الى أن يزيد من حماسهم لنشر الدين الإسلامى ، ومحاربة مايتعارض مع مبادئه من بدع وخرافات.

3. انتشار الطرق الصوفية وتأثر الممالك الأفريقية الإسلامية بها مما ساعد فى ظهور حركة الجهاد.

ولقد اتسم الجهاد الإسلامى الأفريقى بأنه شمل كل مناطق غرب القارة الأفريقية وأحدث ثورة عميقة فى جوانب الحياة السياسية والثقافية والدينية ، واتخذ شعارا ضد أعداء الإسلام على مر التاريخ (23) بحيث لم يحمل السلاطين الأفارقة مواطنيهم قسرا على اعتناق الإسلام - بل شاع الإسلام فى أعماق القارة بتؤدة وهدوء ، ولم يكن فيه قط نظام متدرج أو مبشرون كما فى الغرب المسيحي(24).

فقد قامت الدعوة للإسلام على الاقتناع ، وانتشرت من قوم إلى قوم ، وما أن تصبح الجماعة مسلمة حتي تغير أساس حياتها المشتركة، إذ رفع الإسلام من مكانة المرأة الأفريقية ، وأحدث تغييرا فى نظام الزواج

وحصره في أربع زوجات بعد أن كان الرجل يتزوج بأى عدد من النساء شاء (25) وأسهمت المصاهرات إلى زيادة التقارب والتفاهم والتعمق فى فهم الإسلام بين القبائل الأفريقية(26).

وبما أن الإسلام هو دين وثقافة فقد كان لهذا العامل أثره الواضح في إقبال الأفريقيين علي تعلم القراءة والكتابة مما أدى إلى انتشار الكتاتيب والمدارس لتعلم الثقافة الإسلامية ، إذ التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة ، واصبح التعليم فريضة دينية والاشتغال بها لايعتبر وظيفةمانعة من الوظائف الأخرى ، وفى هذا الصدد ذهب ترمينجهام (Triminqham)إلى الإشادة بكثرة المدارس التعليمية في المناطق الأفريقية إذ قال: «كل شخص يأنس في نفسه الكفاءة يفتح مدرسة قرآنية فى شرفة واسعة أو فى حجرة فى بيته أو في حوش منزله ، وهو يبدأ بأطفال عشيرته فيأتيه أطفال الجيران»(27).

كان نظام التعليم يتم على أساس مستويين أولهما المدارس القرآنية ، ففى مدينة تمبكتو وحدها بلغ عدد المدارس القرآنية حوالى« 180 » مدرسة يؤمها آلاف الطلبة من مختلف مناطق غرب أفريقية..

أما المستوى الثانى من التعليم فيختص بدراسات العلوم الإسلامية على غرار مايتم في الجامعات الإسلامية المعاصرة في القيروان وفاس والأزهر والحجاز(28).

ومن الثابت أن تجارة الكتب كانت مزدهرة فى المراكز الثقافية الأفريقية لدرجة وصف فيها إبن بطوطة مدينة تمبكتو بأن« أنفق شئ في أسواقها كانت الكتب» ممايفسر وجود نهضة فكرية مزدهرة احتل فيها الفقة والتاريخ منزلة عظمى(29)..

ولقد أثرت اللغة العربية تأثيرا كبيرا في اللغات المحلية الأفريقية، واتخذت لغة للتخاطب والكتابة وللمراسلات الرسمية وبرزفقهاء وعلماء أفارقة كانت لهم إسهاماتهم القيمة في مجالات الفقه والتفسير والحديث، وشاركوا في تعميق الثقافة الإسلامية بين المواطنين بل وتمتعوا باهتمام ورعاية كاملة ، حيث تولوا القضاء وأعلى المناصب في الممالك الإسلامية الأفريقية وتزايد الاهتمام بالتعليم الديني، والارتقاء بمستوى الدراسات القرآنية والفقهية وغيرها.

وقد أشار ابن بطوطة لدى رحلته إلى مناطق غرب أفريقية إلى مالمسه من تقدم علمي وكثرة فى العلماء والدارسين وحفاظ القرآن الكريم سواء كانوا من السكان الأفارقة المحليين أو من باقي أنحاء العالم الإسلامى الذين يتوافدون علي المراكز الثقافية الأفريقية فى (تمبكتو وجني وبرنو) وغيرها، وكان لجهود العلماء والفقهاء الإسهام الكبير فى تحويل المجتمعات الوثنية الي الإسلام ونشره على نطاق واسع ، كما لعبت مواكب الحج الأفريقى دوراً في إتاحة فرص التلاقى بالمدارس الفكرية في البلدان الإسلامية التى تمر بها هذه المواكب مما يزيد فى توطيد الصلات والاحتكاك والاطلاع علي مراكز الإشعاع الإسلامي فى مناطق المشرق العربي ومصر وشمال أفريقية..

أما المجال الاقتصادى ، فلقد شمله الإسلام بالتغيير الجذري، ونقله من اقتصاد متخلف يقوم على الإقطاع والاحتكار والاستغلال من قبل السلاطين والحكام إلى نظام يدفع فيه

الأغنياء الزكاة إلي الفقراء ويحرم فيه الربا والغش، مما حقق ثراءً للمجتمعات الأفريقية وتوزيعا عادلا فى الغنائم تعود على المسلمين بالنفع.

لقد سار الإسلام مع التجارة منذ البدايات الأولى، إذا حمل التاجر المسلم معه لأفريقية تجارته وصدقه وأمانته وحسن مسلكه ، فكان نموذجا للاقتداء، ولم يكابر فاختلط مع السكان المحليين ، وحدث التزاوج والتصاهر مما ساعد على انتشار الإسلام من ناحية وعلى زيادة التقارب والتفاهم من ناحية ثانية.. ونلمس عمق التأثير الذى أحدثه التصاهر والتزاوج في تشكيل البنية الاجتماعية المسلمة ومانتج عنه من تغيرات في إيجاد عنصر واحد يدين فقط للإسلام ، لقد تمكن التجار المسلمون من الوصول إلى داخل المناطق الأفريقية سعيا وراء الرزق ، وحرصا على نشر الدعوة بين الأفريقيين ، فكان لهذا الدور أثره الايجابى والذى عبر عنه أحد السلاطين الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام ودعوا اليه بين القبائل الأفريقية مرحبا بالتجار المسلمين:« أنتم السبب فى صلاح دينى ، وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله على به وعلى أهل دولتي من الإسلام ، فعرفوا المسلمين أن يأتونا فإنا نحن قد صرنا إخوانا لهم مسلمين مثلهم (30) .

وأخيراً فإن المناطق الأفريقية اكتسبت بفضل الإسلام ـ مركزا حضاريا تشع منه الثقافة والمعرفة وتزدهر فيه المجالات الاقتصادية ، فبعد أن صار الدين الإسلامى هو الدين الرسمى للمجتمعات الأفريقية قامت الممالك الأفريقية الإسلامية القومية وأصبحت جزءاً هاما فى العالم الإسلامى لها إسهامها الحضاري المتنوع وآفاقها المتميزة فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .



الهوامش والمراجع :

(1)- بازل ديفدسون - أفريقية تحت أضواء جديدة ، بيروت 1961،ص35.
(2)- جمال زكريا قاسم ، الروابط العربية الأفريقية قبل حركة الكشوف ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،1977،ص12.
(3)- محمد عبدالله النقيرة ، انتشار الإسلام فى شرق أفريقية ومناهضة الغرب له، الرياض: دار المريخ ،1982،ص117.
(4)- محمد أحمد الحداد ، حقائق تاريخية عن العرب والإسلام فى أفريقية الشرقية - بيروت : دار الفتح ، 1973،ص30.
للمزيد من المعلومات انظر:
(5) De pedrals , Manual Scientifgue occidentale de L' Afrique noire , paris , 1949
(6) Goyilly . A . L ' Islam dans L'Afrique occidentale Francaise , paris , 1952 , p 45 .
(7) إبراهيم طرخان، دولة برنوا الإسلامية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976،ص58
(8) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة فى أفريقية ، القاهرة: دار النهضة العربية 1963،ص341..
(9) S . Trimngham , The Influence of Islam upon Africa , london , 1968 .
(10) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ، ص ص 10-11.
(11) أحمد الطاهر ، أفريقية فصول من الماضى والحاضر ، القاهرة: دار المعارف 1975،ص74..
(12) محمد أحمد الحداد ، المرجع السابق ،ص170.
(13) محمد صالح أيوب ، مجتمعات وسط أفريقية بين الثقافة العربية والفرانكفونية بها . منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، 1992،ص6.
(14) ابن بطوطة ، الرحلة ،ص256.
(15) أحمد الطاهر ، المرجع السابق ،ص78.
(16) ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ص193.
(17) محمد عبدالله النقيرة ، المرجع السابق ،ص252 نقلا عن Trimingham , opcit 49-50
(18) توماس أرنولد تويني ، الدعوة الى الإسلام الأولى ، ترجمة حسن ابراهيم ،ص379..
(19) من بين هذه المظاهر الجاهلية ، الاحتفالات التى تقام للآلهة والأسلاف والظواهر الطبيعية ، وكذلك القيام بأعمال السحر ، والاعتماد على الكهنة لدفع الأخطار وتقديم الضحايا والقرابين والإكثار من التمائم والأحجبة ، وقد أبقى الإسلام على عادات الزواج والختان والولادة..محمد عبدالله النقيرة، المرجع السابق ، ص255.
(20) المرجع نفسه..
(21)- إبراهيم حركات، تجارة الرقيق بأفريقية من خلال موقعين ، مسألة الرق فى أفريقية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،1989،ص86.
(22)- إلهام محمد على ذهنى ، جهاد الممالك الإسلامية في غرب افريقية منذ الاستعمار الفرنسي ، الرياض: دار المريخ ،1986،ص36.
(23)- المرجع نفسه..
(24)- موسوعة تاريخ أفريقية العام ، المجلد الرابع ،ص25..
(25)- توماس أرنولد، المرجع السابق ،ص139..
(26) محمد عبدالله النقيرة - المرجع السابق ،ص142..
(27) S . Trimngham , opcit , pp 60-62
(28) موسوعة تاريخ أفريقية العام ، المجلد الرابع ،ص220.
(29) ابن بطوطة - الرحلة : تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ، 1960،ص113 .
(30) كتاب عجائب الهند : بره وبحره وجزايره ، لبزرك بن شهريار الرامهرمزى ، طبعة لندن ، 1886 ، ص59-60 .

طرق تخزين وحفظ الأشياء في التراث الشعبي الليبي

● الهادي عبدالعال حنيش

لقد عرف الانسان منذ عهود طويلة طرقا ووسائل لحفظ ،تخزين الاشياء وان كانت هذه الطرق والوسائل تختلف من مجتمع الى آخر حسب طبيعة وظروف وامكانات كل منها ومافتئ الانسان يطور ويغير هذه الطرق حسب حاجة العصر الذى يعيش وعلي الرغم من أن هذا التغير الذي نسميه تطورا قد يأتى بنتائج عكسية تؤثر سلبا علي صحة الانسان ذاته إلا أن الية العصر وحركته تحتم علينا في الغالب مسايرة ومجاراة هذا التغير وعلي الرغم من أن الطرق التي كان يستخدمها الليبيون في حفظ اشيائهم انقرض اغلبها او في طريقه إلى الانقراض فإنها صارت جزءاً من التراث الذي يجب أن نعتز به وندرسه.

فلقد كان المجتمع الليبي كغيره من المجتمعات طرقه ووسائله الخاصة في حفظ الاشياء وتخزينها إلى وقت الحاجة إليها سأحاول التطرق بعون الله الي بعض من هذه الطرق علماً بانني انطلق في هذا المجال سابقاً والآن من منطقة مزدة وقد تكون لبعض المناطق الأخري بعض الطرق الأخري المتباينة قليلاً.

تخزين الحبوب

تعتبر الحبوب وخاصة القمح والشعير من المصادر الأساسية للمجتمع الليبي فهي تشكل الغذاء الاساسي للمواطن الليبي بل إن الوجبات الأساسية كانت ومازالت مكونة من القمح والشعير وأحياناً التمر فمن القمح يصنع الكسكسي والدشيشة والخبز ومن الشعير يصنع البازين الوجبة المحببة لدى كثير من الليبيين والسويقة الذي تصنع منه الزميتة وتعطى الحبوب علفاً للحيوانات وكذلك مشتقاتها مثل التبن والنخالة ونظراً لهذه المكانة التى تحتلها الحبوب في حياته ،نظراً لكونها موسمية فقد بحث عن الطرق الكفيلة بتخزينها بحيث لاتؤثر فيها عوامل الرطوبة والتعرية ولاينالها السوس وهي طرق بدائية ولكنها عملية وحافظة ومضمونة وطريقة حفظ الحبوب تتلخص في الآتي

بعد الانتهاء من حصادة ودرس المحصول وكيله ووضعه في غرائر وأكياس لابد من نقله إلى مكان التخزين إذ لو بقي في هذه الاوعية يصيبه السوس ويتغير طعمه مع

مرور الزمن ونظراً لعدم وجود وسائل نقل سريعة وقادرة علي نقل كميات كبيرة فكان مكان التخزين يختار بالقرب من مكان حصد ودرس الحبوب اي في الوديان وبعيداً عن منطقة الحضر ومكان التخزين هذا يسمي العقلة فما هي العقلة؟

العُقلة

بالمفهوم الذي كان مستخدما في اللهجة العامية تعني مجموعة من المطامير مفردها مطمور والمطمور حفرة حلزونية الشكل قطرها يتراوح مابين المتر او المتر ونصف وعمقها لايتعدي المتر والنصف وتبطن الحفرة بطبقة من التبن من جميع الجهات تم يوضع بها المحصول علي حد سعتها وتبطن مناأعلي بطبقة من التبن أيضاً تم بطبقة من التراب ويجب ان يكون اعلي المطمور بارزاً فوق سطح الأرض ويسجل اسم صاحب المطمور بالصمغ علي حجرة مسطحة وتوضع مقلوبة علي المطمور كما يجب أن يكون مكان العقلة في مكان مرتفع قليلاً حتي لاتجرفها السيول ولقد عاصرت شخصياً وجود العقل في منطة مزدة وظلت موجودة حتي بداية الستينات الا أنها اختفت تماماً الآن وهي موجودة بهذه الكيفية في مناطق كثيرة من ليبيا وبشكل أهالي المنطقة او القبيلة عقلة واحدة ويكلفون شخصاً بحراستها مقابل ماهية تعطي له من نفس المحصول حسب الاتفاق ويجوز لصاحب المطمور أو المطامير سحب مايحتاج اليه اثناء العام بمعرفة الحارس

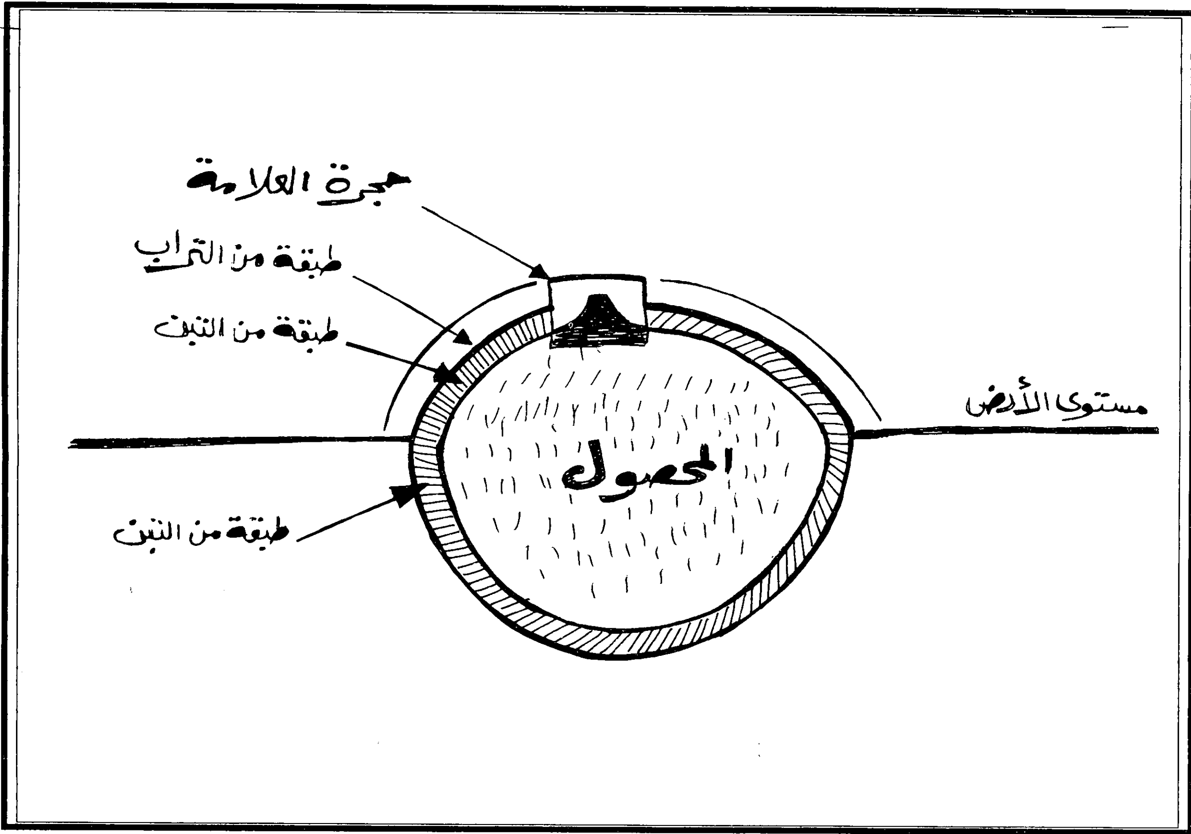
وواضح أن اللفظة مشتقة من العقل الذي يعني فيما يعني الحصن وجمعه عقول وأورده ابن منظور وقال هو المعقل وعلي الرغم من ان المعاجم لم تذكر لفظة عقلة بالمفهوم الذي اوردناه الا ان ربط العلاقة الدلالية بين المعقل كحصن والعقلة باعتبار أنها مكان لحفظ أي تحصين الحبوب من كل خطر واضح تمام الوضوح.

أما لفظة مطمور فهي مشتقة من الفعل طمر الشئ والاستخدام للاسم أو اسم المفعول موجود في العربي الفصيح والعامي بنفس المفهوم يقول ابن منظور في لسان العرب وطمر الشئ خبأه حيث لا يدرى وأضاف المطمورة حفيرة تحت الارض او مكان تحت الأرض قد هيئ خفياً يطمرفيها الطعام والمال اي يخبأ والمطامير حفرتحفر تحت الارض توسع أسافلها وتخبأ فيها الحبوب

وهذه الطريقة في التخزين تقي المحصول من كافة الاضرار مثل التسوس أو تغيير اللون او الطعم وقد يبقي المحصول مدفونا في الارض لمدة عام او عامين أو ربما اكثر دون أن يحدث له أي تغيير أو ربما تغير بسيط بناء علي التفاعل الداخلي ولكن من عادة سكان الصحراء وأهل البادية أنهم يغيرون القديم بالجديد دائماً وإذا كثر المحصول تكثر بطبيعة الحال العقلات ولكن يتم استغلال القديم أولا في كل الأحوال ونلاحظ أن هذه الطريقة لاتكلف شيئاً فلا سيارات لنقل المحصول ولامخازن مكلفة تحتاج إلى تهوية وتكييف معين كما أنها تحتفظ بالمخزون بنفس الجودة والكيفية الأصلية

حفظ الماء

من المعلوم ان الماء هو جوهر الحياة ولاتوجد خلية الاو يكون الماء عنصراً أساسياً فيها



رسم توضيحي لتكوين « المطمور »

مصداقاً لقوله تعالى(وجعلنا من الماء كل شئ حي) ومن تم كان لزاما إيجاد أوعية تقوم بحفظه وايضاً بتبريده إذا لزم الأمر والمواطن الليبي وعبر مراحل تاريخه عرف كيف يحفظ الماء ولكل مرحلر أوعيتها الخاصة كما أن طبيعة البداوة تحتم إيجاد أوعية سهلة الحمل وعملية ولعل أهم وعاء لحفظ الماء ونقله وايضاً تبريده هو «القربة» والذي تضل مستخدما إلى فترات قريبة وتضع «القربة» من جلد كبار الماعز أو الودان إذ يسلخ الحيوان بطريقة معينة لايتم فيها شق الجلد أو احداث أي ضرار به وينظف وتسد منافذه

وقد تسع القربة من 15 الي 20 لتراً احسب حجمها ولم أعثر علي هذه اللفظة بهذا المفهوم تماماً في بعض المراجع العربية إلا أن أبن منظمور يذكر فيما يذكر مجموعة من الالفاظ موضحة يمكن ان يكتشف منها علاقة دلالية بمفهوم القربة إلا أن اللفظة بمفهومها المستخدم لدينا لم ترد لديه .

وهو يذكر في مادة «قرب» أن «القربة من الأساقي» وينقل عن العلامة ابن سيده قوله «القربة: الوطب من اللبن»والوظب هو شقاء اللبن يتخذ من جلد الجذع فما فوقه ويقول(وقد تكون للماء وقيل هى المخروزة في جانب واحد) .

ويستخدم الراعي وعاءً صغيراً ينقله معه لحفظ الماء واستغلاله خلال يوم رعيه وهذا الوعاء الصغير يسع مابين اللتر والنصف او اللترين ويسمي «مطرة » ومصنوع من المعدن واعتقد من جانبي ان استخدام هذا الوعاء

قد دخل مع دخول المستعمرين

حفظ اللحم

رغم أن أهل البادية معروفون بكرمهم وحسن ضيافتهم ويستهلكون اللحوم من خلال ذبح شياههم ، اذ لايوجد قصابون يبيعون اللحم في كل وقت إلا أن عملية الاحتفاظ باللحم تظل ضرورية لعدة أسباب:

1) قد يحل ضيف في أية لحظة من النهار او الليل فسكان البوادي لايعرفون مواعيد أو طقوساً معينة ،ثم إن الصحراء بطبيعتها غالباً ماترمي بالناس إى مالا يقصدون فقد يضل شخص ما الطريق أو قد يتوه أو ربما يتعب من السفر فيقصد أول بيت يصادفه .وقد لايكون الشخص المضيف مستعداً للذبح تلك اللحظة فيلجأ إلى المحضوظ.

2)لاستهلاك الاسر وقت الحاجة

3) احترام لبعض التقاليد الدينية فمازالت بعض النسوة في مزدة حتي الآن يحتظن بما يسمي «عظم عاشوراء» من شاة العيد وهو يتكون من أجزاء قليلة من الشاة التى ذبحت في عيد الاضحى إلى يوم عاشوراء ولازالت هذه العادة متبعة حتي الآن في بعض أسر البادية.

وتتلخص عملية حفظ اللحم التقليدية كالآتي:

يتم تجفيف اللحم في الهواء بحيث الا يتعرض للأتربة لمدة ثلاثة أيام ،ثم يقلي بعد ذلك في الزيت بعد تمليحه ويحفظ اللحم المقلوّ في وعاء خاص كانت في السابق من الخزف أو الطين ويسمونه «الزير» ولازالت بعض الأسر حتي في المدن تلجأ الي عملية تقديد اللحم اي جعله «قديد» وبعضها تسميه «قريش» ومنه الفعل «قرش» إلا أن كلمة «قديد» أضحت أكثر استعمالاً و«التقدير» من العادات العربية القديمة وقد أورد اللفظة ابن منظور حيث قال:

القديد اللحم المملوح المجفّف في الشمس إلاّ أن الدال مشددة في نطق اللفظ العامي وفيما يروونه عن الرسول الكريم قوله (ماأنا الا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)

حفظ السمن والرب:

السمن معروف وهو مستخلص من الزبدة بعد غليها بطريقة معينة . أما الرب فيصنع من التمر حيث يغلي التمر في الماء إلي أن يتعقد وعندها يصبح رباً والسمن علاوة علي استخدامه في الأكلات الشعبية فيعطها طعماً ونكهة مميزة خاصة ، فهو يستخدم علاجاً وبالتالي لايكاد يخلو بيت من وجوده وكان السمن والرب يحفظان في وعاء خاص يسمى « العكة» وهي تصنع من جلد صغار الماعز إذ يدهن الجلد ، بعد تمليحه لبضعة أيام، بالزيت لفترة من الوقت.

ولقد عرف العرب قديماً هذه الطريقة ونجد كلمة «عكة» مستخدمة في أول معجم عربي وهو الذى وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ سيبويه وأحد مؤسسي علم النحو العربي وواضع علم العروض

حفظ الطماطم والبصل

في وقت لم يكن الطماطم المعلب موجوداً ولم يكن البصل طول السنة بل في أوقات

موسمية كما هو معروف ،وحيث أن البصل والطماطم من الأشياء الضرورية للوجبة الليبية كان لابد من عمل طريقة معينة لحفظها وتناولها وقت الحاجة إليها . وطريقة حفظ الطماطم هي «تشريح» الطماطم ويوضع في مكان جاف ونظيف ويترك لأشعة الشمس إلى أن يجف تماماً ثم يوضع في أوعية ويتم تناوله عندما يشح الطماطم وينتهي موسمه اما حفظ البصل فيتم تقطيعه قطعاً صغيرة ويتم تجفيفه تم غليه في الزيت (بدرجة متوسطة) ويسمونه «حريقة» من الفعل حرق.

حفظ الدقيق والسويق

لم تكن الأكياس والأواني المعدنية أو غيرها موجودة كما هو الآن فكان الدقيق الذي يتم طحنه في فترة سابقة يحفظ بعد غربلته في وعاء يسمى «المزود» وهو يصنع من جلد الغزال ، أو جلد الماعز .

حفظ الروائح

لم تكن المرأة الليبية تعرف الاصباغ والروائح المصنعة كيميائياً ،بل كانت تحضر روائحها من الأعشاب الطبيعية بطرق معينة تعرفها المرأة ،وخاصة روائح «العروس» وكانت هذه الروائح تحفظ في إناء من الخزف يسمى «الجذولة» حيث تجهز مسبقاً ثم تحفظ بعد ذلك.

تلك هي بعض الطرق المتبعة في حفظ الأشياء المهمة والتى كانت عملية حفظها تشكل حاجة أساسية لحياة المواطن..

وقائع غير مشهورة من السيرة الهلالية

تغريبة الخفاجي عامر

● باسم عبدالحميد حمودي

هذه وقائع من السيرة الهلالية الكبرى خاصة بالجزء العراقي منها وهى ربما تكون مجهولة في مغرب وطننا العربي.

وهو جزء لم يكتب عنه إلاّ القليل على الرغم من كثرة المرويات الشفاهية حوله فى بعض أقطار العروبة.

يرتبط هذا الجزء بشخصية عراقية تدعى الخفاجي عامر بن ضرغام لها مكانتها في قصائد المؤدين وفي حكايات رواة السيرة وهى صورة شخصية تعتبر أخاذة تركت الحكم من أجل المثل العليا لتحقق للآخرين سعادتهم وماتت من أجل خير الناس فاستحقت إشادة الرواة والمنشدين وكذلك حب القراء والمستمعين لفصول هذه السيرة الشعبية الجميلة.

تشكل شخصية الخفاجي عامر العراقي في السيرة الهلالية الكبرى عموماً وفي التغريبة خصوصاً لوناً من ألوان الشخصيات المركبة التي تتمتع بفرادة خاصة لم تدرسها البحوث الخاصة من دون تمهل وتعرف مستجل لخصائصها ودورها المثير في السيرة.

كان الخفاجي عامر(ويسمونه النجع في مصر والخواجا في تونس) حاكماً علي العراق يوم دخل الهلاليون بلاده ، وكان من عادة الهلاليين وهم يجوبون الأرض من الحجاز الى حيث تونس أن يرسلوا الرسل إلى حاكم أي بلاد يمرون بها ويطلبون منه الأمان ،وقد فعلوا ذلك مع الجميع من الدبيسي بن مزيد (1) إلى ملوك العجم وهم (فرمند وعلي شاه والصلصيل والمغل وينذر المنذر والنعمان (2) إلى الفرمند ملك مصر وغيرهم كثير .

وإذا تتبعنا علاقة الهلاليين بحكام البلاد التي يجتازونها للوصول إلى تونس، وجدنا أن هؤلاء الحكام يحاولون ابتزاز الهلاليين واذلالهم وأخذ عشر أموالهم ونسوتهم ، فيرفض أولئك ثم تقوم الحرب بين بني هلال وحاكم القطر أو المنطقة لتنتهي بانتصار بني هلال وتثبيت حاكم جديد علي تلك البلاد ثم رحيلهم منها الى بلاد أخرى عدا حاكماً واحداً هو العراقي عامر الخفاجي ، فقد وقف معهم وساندهم واستضافهم ثلاثة أشهر .ولم يكتف بذلك بل رحل معهم الى تونس -بالرغم من معارضة أهله ووزرائه - وقاتل معهم (حتى قتل غدراً) إيماناً منه بعدالة قضيتهم في البحث عن أرض يستقرون فيها ويعيشون بكرامة كسائر العرب.

فلماذا فعل الخفاجي كل ذلك ؟ ومن هو الخفاجي عامر بالذات وماذا كان يحكم من العراق؟

-الرواية الحجازية-

تقول الرواية الحجازية التي جمعتها د ·اليسون ليريك من أفواه الرواة ومن مقتطفات منشورة وغير منشورة: (3)

«يقول -الراوي- مشوا في طريقهم وطبوا علي العراق ولفوا علي الخفاجي بقصر الأخيضر ولما أقبلوا علي الخفاجي عامر قالوا ارسلوا وفد من البنات · اعملوا به مثل ماعملنا بالشريف بن هاشم عن الحرب والضرب تراه يحب البنات جنه البنات وسلمن عليه قال أنتم لاسايرتوني ولاشريتوا ولا بعتوا من المدينة ·قالن ممنوعين · وطاح نظره علي وطفى بنت ذياب بن غانم وقال تراكم مرخوصين · ويوم رخص لهم بالكيل نزلوا عنده ودخلوا وكيلوا · يوم كالوا وحملوا من العراق ورحلوا قال اسلم عليكم ياأهل العراق أنا ماني خوي لكم · أنا صرت هلالي من بني هلال · وشال ومش معهم وقالت أخته دفاله أنا ماأجلس بعدك ، أنا ماأمشي إلاّ معك ومشت مع (أخوها) · فلما راح جت والدته ووصت ذياب بن غانم علي ولدها قالت ياذياب ترى ولدي وداعتك عن الخونة من البطن ولا قبلاكم أنتم وإياه إن تصارع بعض بس عن الخونة فقال عندى »·

-الرواية المصرية-

وقبل أن نورد أبيات شويله -أم عامر على الرواية الحجازية - لذياب وإجابته لها ، نرى أن هذه الرواية القصيرة قد استخدمت كلمات مفصحة وحديثة عامياً وأن عامراً كان يحكم قصر الأخيضر عندما دخل الهلاليون ومعني ذلك أنه كان يدير الجانب الغربي الأوسط من العراق وهو جانب بعيد عن بلاد التركمان وحاكمها الذى قتلوه (الملك الغضبان)(4)·

ونصبوا ولده بدله وهو يخالف أيضاً ماأورده رواة آخرون ففوزي العنتيل ينقل خبراً عن الرواية الشعبية المصرية يفيد أن الهلاليين قاتلوا مع عامر ضد (الخراسان) ملك العجم كما سنعرض وطبعة صبيح المصرية من التغريبة (5) تخالفها في كثير من التفاصيل فهي ترى فى الخفاجي عامر حاكماً على العراق لا علي قصر الأخيضر فقط ولاتجده إلاّ حاكماً لاتغريه النساء بل هو يستعد لقتال الهلاليين لولا حكمة الأمير حسن قائدهم الذي كتب له مادحاً مبدياً طاعته له ·عندئذ يتبدل الحال ويتقدم الخفاجي لاكرامهم واستضافتهم وفق التفصيل الآتي الذي ترويه طبعة صبيح من التغريبة(6)·

«قال الراوي لهذه السيرة العجيبة إن بني هلال لما قتلت الغضبان وولت ابنه ملكاً علي بلاده ورحلت عن الديار طالبة بلاد العراق فلما وصلوا اليها وجدوا أنّ الحاكم علي تلك البلاد رجل من الأجواد قد اتصف بالجود والكرم والفضائل وحسن المآثر يقال له الخفاجي عامر يحكم علي البصرة وبغداد والموصل (وسائر) العراق ومايلي تلك البلاد »·

إذن فعامر هنا لا يحكم إيالات العراق فقط بل يحكم «مايلي تلك البلاد» ومعني ذلك أنه يحكم أجزاء من الجزيرة العربية والخليج العربي وقد كان للخفاجي - حسب المصدر نفسه: من الأبطال والفرسان نحو مائتي ألف عنان فبينما هو جالس في الديوان وحوله الوزراء والأعيان إذ دخلت الرعيان وقالوا له إعلم ياملك الزمان أن بني هلال قد دخلت ديارنا وأكلت من ثمار

بساتيننا وأشجاره (وأشجارها) وهم كالجراد المنتشر لم يعرف لهم أول من آخر».

إذن فهو «ملك الزمان» وجيشه يضم مائتي ألف «عنان» أى فارس إضافة للمقاتلين الراجلة ، وهو «من أشد فرسان الصدام»(7) كما تصفه طبعة لبنان من التغريبة وهو «حاكم ثمانين قرية» كما تقول والدته شويلة وهو أيضاً :

حرم علي البيبان مايغلقونها

مخافة خطار العراق تضيع

دلالة على كرمه وجوده ، ولم تخدعه وطفى ابنة دياب بن غنم (ذياب بن غـانم) بل إن الروايات المتضاربة للتغريبة (والمتشابهة أحياناً) تجد أنه يميل الى الجازية أم محمد وأخت الملك حسن تارة وإلى وطفى بنت ذياب تارة أخرى ولكن هذا الأمر لايتم بسرعة بل بعد أن أثبت الخفاجي موقفه الكريم واستضاف القوم بعدنقاشات وتهديدات احترم نتيجتها الهلاليون استقلال بلاده فكيف تم ذلك ؟

تقول التغريبة (طبعة صبيح)(8)

«قال الراوي فلما سمع الخفاجي هذا الكلام -من الرعيان- صار الضياء في عينيه كالظلام والتفت إلى الأمراء وأكابر الرجال وقال لهم ماقولكم في بنى هلال فعند ذلك تقدم الوزير عميرة وأشار يقول:

يقول الفتى المسمى الوزير عميره

أيا يأمير اسمح لي ترى أفكارى

يأمير ارسل للأمير أبو علي

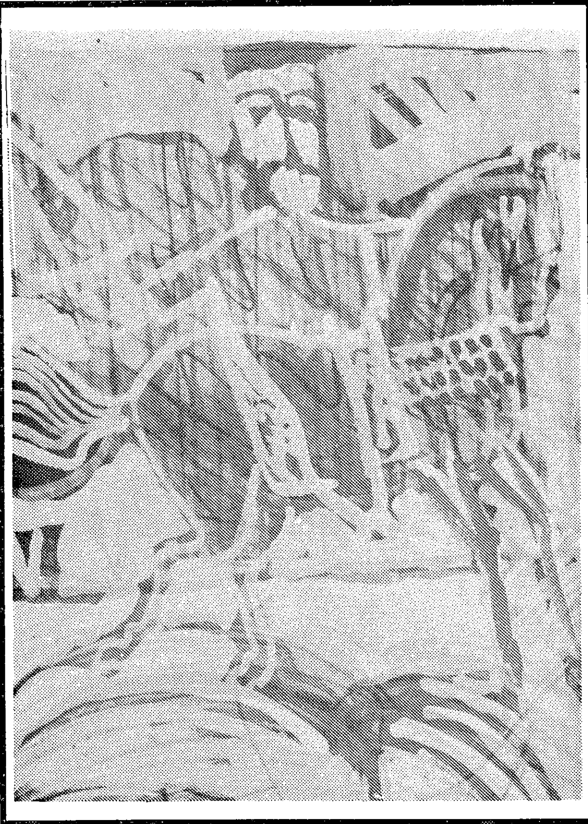
وأبو زيد والزغبي وكل كبار

لياتوا بعشر المال والخيل والضنى

والبوش يأتي لك مع الابكار

كل السراري والجواري وغيرها

ومايملكوا من فضة ودراري



رسم للفنان : محمد عبية

فاذا أرسلوا لك مأأنت طالبه

من الخيل والأموال والأعشار

فدعهم يجوزوا يأمير بلادنا

ويرعوا من أرضنا ويسار

فهذا كلامي يأمير ونصيحتي

والشور عندي أحسن الأشوار

وهذا الرأى فعله ملك مثل الدبيسي بن مزيد ملك بلاد حزوة والتير الذي كتب للهلاليين عندما أرادوا دخول بلاده فقد كتب للأمير حسن يقول :

يقول الدبيسي والدبيسي مزيد

بدمع جرى فوق الخدود برود

ألا ياغادياً علي متن ضامر

تشابه غزالاً بالفلاة شرود

إذا جيت عند الهلالي أبو علي

اعطيه مكتوبي تنال سعود

ألا ياحسن اسمع كلامي واعتبر
وافهم مني غاية المقصود
فان كل قصدك تجوز بلادنا
فارسل لنا عشر مالك حتي ترود

ثم يطلب آلاف النوق والدروع والجياد ولايكتفى بذك بل يطلب منهم الأميرات بالاسم:

وارسل لنا الجازية أم محمد
مع الست عليا بغية المقصود
وارسل لنا معها بنات امارتك
واحذر لاتخالف لاتكون حقود

ويفعل الخفاجي بداية بمشورة وزيره ويرسل له كتاباً بهذا المعني لاتورد تفاصيله الروايات المتعددة وربما كان ذلك بسبب اتضاحه من جواب الأمير حسن عليه كما يأتي ، والمهم هنا أن الأمير حسن رأس التحالف الهلالي يكتب للخفاجي عامر كتاباً يسلمه لوزير الخفاجي الثاني (سلام) وقد جاء فيه:

أيا غادياً مني علي (ظهر) ضامر
يسبق مسير الطير إن كان طاير
إن جيت نحو الكبيسة وأرضها
فاقرا اسلامي للخفاجي عامر
وقل له قال الأمير أبو علي
حاش لمثلك يبني للمناكر
تريد بناتنا يا خفاجي ومالنا
وما تريد الخيل ثم الأباعر
وقد شاع ذكرك في البلاد جميعها
وكفك سخي الجود ياابن الأكابر
ونحن ياأمير لنا بالغرب سادة
بأرض الزناتي ياملك بالجنازر
وجينا جميعاً ياأمير لأجلهم
لكي تخلصهم بضرب البواتر
ونحن ضيوفك ياخفاجي اهتدي
بجاه النبي فخر الوري والعشاير
فدعنا نثني الخير بدربنا
حتي نصل للغرب وأرض الجزاير
ياأمير نحن تحت حكمك وطاعتك
فافعل بأصلك ياخفاجي عامر

وهذه الأبيات توضح جزءاً من أسباب الرحلة الهلالية الطويلة من بلاد نجد حتي تونس ، فهم قد تحركوا بداية طلباً للماء والكلأ وللاستقرار بعد جذب طال مناطقهم في الجزيرة العربية ولكنهم بعد ذلك (أصبح لهم بالغرب سادة بأرض الزناتي مغلولين بالجنازر) فقد أرسلوا الأمراء مرعي ويحيي ويونس كطليعة متقدمة وقعت في أسر الزناتي خليفة حاكم تونس وهم يريدون تحرير هؤلاء وليس لهم من شر علي كل أرض يمرون بها وهذا مبعث احترامهم لعامر ورجائهم له ألا يؤذيهم (وهم الفرسان الذين يستطيعون القتال والانتصار إن واجههم حكام مثل حكام الفرس أو الفرمند حاكم مصر أو الدبيسي أو غيره) . ونلاحظ كذلك من هذه الأبيات ان الأمير حسن يخاطب الخفاجي كملك مرة وكأمير مرة أخري ويشير إلى كُبيسة الحالية كمكان لحكمه وهي مدينة تقع غربي العراق في أرض تقع في اتجاه الأخيضر نفسه وإن كانت ليست قريبة منها . والمهم هنا أن عامراً فتح كتاب الأمير حسن وقرأه:

«وسمعه من كان حاضراً من السادات الكرام قال أبوه درغام - ضرغام - جواب بني هلال أحلي من الماء الزلال فقم اعزمهم وترحب بهم ولا تشهر بوجوههم الحرب لأنهم عابرون طريق فقال الحاضرون هذا هو الصواب» .

ومن هنا يتضح أن الخفاجي لم يستبد برأى

بل شاور أهله وكبار رجاله وكان والده - الأمير ضرغام -أسبقهم في إبداء الرأى الصحيح «وفي الحال ركب الأمير خفاجي في جماعة من الأبطال وركب والده الأمير ضرغام الأسد وقصدوا منزل (بنو هلال) ولما علم الأمير حسن بقدوم الخفاجي عليه ورآه عن قريب يصل إليه ركب مع الأمير أبوزيد وذياب وزيدان شيخ الشباب وجميع السادات الأنجاب وساروا لاستقباله بالعجل وقد زال عنهم الخوف والوجل ولما التقوا بعضهم البعض نزلوا في تلك الأرض وتقدم الأمير حسن إلى الخفاجي وسلم عليه وقبله بين عينيه وتقدم الأمير ذياب وجميع الامراء الانجاب فسلموا عليه سلام الأحباب فشكرهم علي ذلك الاهتمام وسار معهم إلى المضارب والخيام فأجلس الأمير والده في صدر الديوان» .

وعاش الهلاليون مع العراقيين مدة من الزمن قبل أن تأخذ الأحداث مجراها ، هذه الأحداث التي سنورد تفاصيلها معتمدين في مكان آخر علي رواية الشاعر المصري جابر أبو حسين وتعليق الأبنودي .

أسرة الخفاجي عامر وموقفها

تورد الروايات المتعددة أن لعامر والداً يدعي الأمير ضرغام - أو درغام- وتقول الرواية الحجازية أن والدته تدعى (شويلة) التي تجري حواراً شعرياً شائقاً ومؤلماً بينها وبين الأمير دياب بن غانم عندما قرر ولدها الرحيل مع بني هلال فيما تورد الروايات الآخرى (طبعتا مصر وبيروت مثلاً) أن ابنته ذبالة أو ذؤابة هي التي رجته عدم السفر كما يفعل ذلك والده ضرغام لكن عامراً يقرر السفر ويرحل معه والده وابنته ويترك وزيره عميرة وسلام علي البلاد .

ويلاحظ كذلك أن الخفاجي عامر قد حكم بلاد العراق علي الرغم من ان والده علي قيد الحياة وأصول الحكم (أو المشيخة) أن يكون الأب هو الحاكم لكن الظاهر أن عامراً هو الذي استطاع بسيفه وقدرته الخاصة أن يملك ويحكم فكان والده مشاوراً له لا مورثاً الإمارة له .

موقف عامر الجديد

عند جلوس الخفاجي عامر في مضارب بني هلال ينشد قصيدة ترويها الرواية المصرية تدلل علي كرمه وحسن ضيافته وقيامه بتكريم أفضل وهو أن يعطي أرض كُبيسة حتي بغداد للهلاليين لكنهم يأبون ذلك كما تروي الرواية بل هم ينشدون الرحيل بعد مضي ثلاثة أشهر حيث يتم في نهايتها لقاء الجازية بعامر واستئذان الأمير حسن منه بالسفر وهبته له أميرات أربع لكن عامراً يرفض العرض بشرف ويتخذ قراراً مفاجئاً للجميع . فكيف تم ذلك؟

تقول الرواية إن عامراً في يوم لقائه الأول بالأمير حسن رحب بالجميع ثم قال:

قال الخفاجي بن ضرغام عامر

يامرحباً بك في من أتوا البلاد

يامرحباً بك ياأمير أبو علي

يامقري الضيفان والقصاد

يامرحباً بك ياأميرسلامة

ياقاهر الفرسان يوم الطراد

يامرحباً بك ياذياب الماجد

ياحامي الزينات حين تنادي

يامرحبا بك يابدر بن فايد

ياقاضي العربان والورادي

ثم يتخذقراره:

يابوعلى سيروا جميعاً وانزلوا

بارض الكبيسة ثم بأرض الوادى

أهلا بكم أهلاً أهلاً بكم
أنتم ضيوفي تأكلون من زادي
أوهبتكم أرض الكبيسة كلها
من ها هنا - حتى - الى بغدادي
فجميعها بين الأيادي بحكمكم
نحن العبيد وأنتم الأسيادي

لكن السلطان(الملك) حسن يشكره ويبين له - كما في القصيدة الأولى - سبب مرور الهلاليين بأرض العراق وينشد:

يقول الفتى حسن الهلالي أبو علي
ياأمير عمرك لاتري أقدارا
ياأمير نحن سايرين مغربا
ياأمير مانحن لكم اخطارا
أولادنا في الغرب عند خليفة
في حبس ماله ياأمير قرارا
نحن إليهم سايرين بسرعة
والله يفعل كل مايختارا
قد عمنا جودك وفيض مكارمك
ياقاهر الفرسان يوم الغارا

عامر ووطفة بنت دياب

تقول الرواية الحجازية التي تنقلها الدكتورة اليسون ليريك(9):

«وصارت عليهم معارك حرب هم والزناتي خليفة وفاز الزناتي خليفة وركبوا بني هلال يبون الصلح بينهم ويجوزون من معارك الحرب وعقبت القوات الثانية وغارت على حلال بني هلال، يوم غاروا عليها اليامار ماحاضر غير الخفاجي عامر ، قالت وطفى بنت ذياب: ياعامر يمدح لي فعلك وأنا ماشفته، قال: ياوطفي أنا والله مالي مع هالحلال لا ناقة ولاجمل وكل رحلتي من العراق من شأنك انت لكن حبيني حبه ما أدري أن ارجع من هالمركاض أو لا ارجع منه، ودنقت عليه وحبته وشافتهم مرة ذياب (ماهي أم وطفى) ، يقول نصره الله عليهم وذبح اللي ذبح وشرد اللي شرد وفك الحلال كله أنته يالخفاجي عامر ويوم رجعوا واليامار صايره معركة عقبهم قالوا من فك الحلال؟ قالوا فكه الخفاجي عامر قالوا كيف فكه الخفاجي عامر اللي صار ماله لاناقة ولاجمل؟ قامت مرة ذياب تطعن ببنته قالت متزوج بنتك عقب مشيته من العراق وجميع مااشتهى حاضر علي كيف مايريد وبعذره لو يفادي عمره، وزعل ذياب من هالكلام وقالت يابنت(فعلاً ماهي متزوجة) روحي ندى بهالزمل الذى بهن مع الشعيب هذاك».



رسم للفنان : محمد عبية

وهنا نجد أن الرواية الحجازية تأخذنا الى

تسلسل درامي آخر وخط صراع ثان سبق أن ذكرته هى والرواية التونسية حيث تتحركان على قضية حب الخفاجى عامر لوطفى وسفره من أجلها ، ولكنها هنا تتحدث عن حماية عامر للأهل والبوش وخلال حب بني هلال مع الزناتى(فيما تروى رواية صبيح ـ كما قرأنا) ذلك عند محاولة بني هلال الخروج من حلب وترك حرب حاكمها البدريس.. والمهم هنا أن الرواية الحجازية تجري حواراً شعرياً بين دياب(الذى لم يكن حاضراً أساساً يوم خرج عامر لقتال الزناتى) وابنته إذ يقول دياب لها:

ياحيف يازمل عصاة آل عامر
اشوف الخنا من فوقهن يشال
انا كل ماجيت الخفاجى عامر
يامار عندك دالع بهبال

فتقول وظفى:

يامن لشلفا ذياب بن غانم
حيثك عن العلم الردي تسال

....

على الكدا ماذاق مني كود حبه
والقلب يرجف والدموع همال
يوم خذا الاتراك حفه مركبي
وانت ما حاضر منكم ولاخيال(10)
هذى يعاقبها وهذى يجيبها
وهذى تسهجنا بلاخيال
تسمع دوي الخيل من كل بمه
وأثره عامر رشيد الفال
ماريا يبه زوج دفاله موسى
عقب عامر ما أريد رجال
ماتفتكر للجازية أم محمد
تسرى لها حافي بغير نعال

وهنا يظهر من موقف وطفى أنها لاتنكر حبها للخفاجى ولكنها تنكر أنها عملت(فعلاً رديا) وأنه لم ينل منها غير قبلة(والقلب يرجف والدموع همال) وأنه دافع عن(البوش) كرجل ضد(الأتراك) ،وكلمة الأتراك هنا تعنى جيشاًغير عربى قد وضعه الراوي الحجازي فى غير موضعه فرجال الزناتى عرب من آل حمير والمهم كذلك أن وطفى لاتخفي حبها بل تقول بصراحة(وأنا عقب عامر ماأريد رجال) ولاتكتفى بذلك بل تذكر والدها كيف كان يسرى ليلاً الى الجازية(حافي بغير نعال) فيقول دياب(أنا ظلمت ابنتى) وينشد:

وانا أبوك ياوطفى تقاضى مرادك
وانا زين الخيل إن طبهن جفال
ان ملاقا النفس لنفس تودها
ان بها الرعفا وطيب اطفال(11)

ويقول الراوي«وزوجها إياه وزوج أخت الخفاجي عامر دفاله ولده موسى» وبهذه المصاهرة المفترضة يكون دياب بن غانم قد وثق علاقة آل زغبه مع حاكم العراقيين لكن ذياب يفترق عن أهله ساعة الشدة ويكون فى الخلف(مع البوش) ويهددهم بالذبح إن جاءوا لطلب نجدته بعد أن نحوه عن القيادة(وهنا تكون الروايات متطابقة حول ذلك رغم أن الرواية الحجازية تصر على ايراد كلمة الترك) هنا وتستمر فى الوصف لتقول:

«ومساء اليامار انكسروا بني هلال وقف لهم عامر الخفاجي ماعاد أحد تصدي جواده حامي الجراير كلها».

ثم تورد«وثمان ليال والحوكة دايره رحاها ركاهم عامر الي نكست الخيل ركاها عامر في نحورهم وذبحوا كل فرسان الهلالات وذبح منهم الزغابا الثلاثة وذبح منهم عامر ويوم قتل عامر

الخفاجي قالوا تعالوا يابنى هلال ماساد موقف عـامـر إلا ذياب حنا فى شـدة لكن ارسلوا لذياب»(12).

فيرسل سعد الهجين الى دياب فينشد هذا له - بعد أحداث كثيرة - عن تفاصيل معركة الخفاجي عامر بادئاً بالمهرة - أسوة بما قاله عن باقى الرجال - قال ذياب سائلاً:

انشدك عن مهرة الخفاجى عامر
هي من جياد الفلا والاثبارها

قال سعد:

تنشدنى عن مهرة الخفاجي عامر
خلاف التوالى مافى الا هجارها (13)

فيعرف أن صاحبه قد مات فيسأله عن بذير القاضى ثم يعود إلى الخفاجي ليسأله فيجيب سعد:

تنشدنى عن ولد الخفاجى عامر
لوا خراب الدار عقب اعتمارها
ماجيتك الاأنا مغسله ومكفنه
وجال عن بيض الثنايا غبارها
والله صارت دون الخفاجي عركه
مايتميز ليلها من نهارها
ثمان ليال موقف الترك عامر
يوم الحص من حرها واحترارها
ماعذر الصفرا ولا حل سرحها
ولاقبل العذرا على جال نارها
ويضرب الخيل بدق بالقنا
يعقب سباق الخيل يلحق بشارها

وهنا يتضح من وصف سعد الهجين - حسب الرواية الحجازية - مافعله عامر الخفاجي الذى(اوقف الترك ثماني ليال ولم ينزل عن فرسه)وهو بعد ذلك كما يضيف سعد قتل تسعين قائداً(شيخاً) وتسعين فرساً وتسعين حصاناً حتى قتل فودعه بنو هلال وفيهم تسعون عذراء منهن وطفى(الذى كان الراوى الحجازى قد ذكر ان والدها قد زوجها لعامر) وهذه هى الأبيات كما رويت:

وتسعين شيخ قتلوا دون عامر
وافتاخهم بيمانهم عن يسارهم
وتسعين بكره عقرت عند عامر
مختارها عقارها من بكارها
وتسعين سابق عقرت عند عامر
حذفت على قب الخفاجى كسارها
وتسعين عذرا تضحى الشمس خدها
تودع على قبر الخفاجى مزارها
منهن بنتك ياذياب بن غانم
قليل تخطيها إلى بيت جارها
تاصل ياقبر الخفاجى وتنثنى
وتهل على ولد الخفاجي اعبارها (14)

وتتوالى بعد ذلك مشاهد الصراع بين عامر الخفاجى والزناتى خليفة وعلاقات العراقيين من آل عام بالهلاليين من جهة وبأهل تونس من جهة ثانية مؤكدين على قيمة هذه الشخصية الشعبية العراقية ضمن السيرة الهلالية الكبرى(**).



الهوامش المراجع:

(1) التغريبة ـ ط صبيح محمد علي ـ القاهرة د.ت ـ ص77.
(2) المصدر السابق ص67وما بعدها.
(3) المصدر السابق ص79.
(4) المصدر السابق ص88 أى تحت جنح الظلام.
(5) المصدر السابق ص88.
(6) المصدر السابق ص88 فى الأصل (فجعل)والأصح(حمل).
(7) المصدر السابق ص89.
(8) شوقى عبدالحكيم ص37.
(9)روايات من تغريبة بني هلال وحروب آل ضغيم ـ الدكتورة اليسون ليريك ـ الرياض ـ مطابع الفرزدق ـ د.ت (ط)ص89 ـ
(10) المصدر السابق ص90 تلاحظ كلمة الاتراك.
(11) المصدر السابق ص92.
(12) المصدر السابق ص93.
(13) المصدر السابق ص96.
(14) ليريك ص98.
(**) باسم عبدالحميد حمودي ـ الزير سالم ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ الموسوعة الصغيرة بغداد1989ص117.

استعمال (بعض) في القرآن الكريم

● إعداد :كامل على حسن

معنى (بعض): «بعض كل شئ،طائفة منه سواء قلت أو كثرت، يقال بعض الشئ أهون من بعض»(1)وهذا معناها وترد على ثلاثة أحوال:

الأولى: أن تستعمل مجردة من(أل) والإضافة ، وحين نتصفح أى معجم مفهرس لألفاظ القرآن الكريم مثل معجم الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى نجد أنها وردت فى القرآن الكريم مجردة من(أل) والإضافة ثلاثاً وستين مرة كما فى قوله تعالي(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو)(2)وقوله تعالى (وإذاخلا بعضهم إلى بعض قالواأتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكّم أفلا تعقلون)(3) وقوله تعالي(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)(4) وقوله تعالى(وما أنت بتابع قبلتهم ومابعضهم بتابع قبلة بعض)(5) وقوله تعالى(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)(6) وقوله تعالى:(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)(7) وقوله تعالى(فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد بعضكم بعض الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بماتعملون عليم)(8) وقوله تعالى (ذرية بعضها من بعض والله سميع عليهم)(9).

وقوله تعالي(قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)(10) وقوله تعالى(فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)(11) وقوله تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظاً)(12) وقوله تعالى(والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض)(13) وقوله تعالى(ولاتتمنوامافضل الله به بعضكم على بعض)(14) وقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)(15) وقوله تعالى(ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا)(16) وقوله تعالى(ياآيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين)(17) وقوله تعالى(وكذلك فتنّا بعضهم ببعض)(18) وقوله

تعالى(ويديق بعضكم بأس بعض)(19) وقوله تعالى(وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا)(20) وقوله تعالى(وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا)(21) وقوله تعالى (وكذلك نوليّ بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) (22) وقوله تعالى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات)(23) وقوله تعالى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين)(24) وقوله تعالي(ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون)(25) وقوله تعالى(ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم اولياء بعض)(26)وقوله تعالى(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الاتفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير)(27) وقوله تعالى (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله)(28) وقوله تعالى(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض)(29) وقوله تعالى(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)(30) وقوله تعالى(وإذا ماأنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون) (31) وقوله تعالى (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل)(32) وقوله تعالى(والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) (33) وقوله تعالى(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبردرجات وأكبر تفضيلا)(34) وقوله تعالى(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)(35) وقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(36) وقوله تعالى(وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً)(37) وقوله تعالى(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو)(38) وقوله تعالى(ولولا دفع الله الناس بعضم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)(39) وقوله تعالى(فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لايؤمنون)(40) وقوله تعالى(مااتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عمايصفون)(41) وقوله تعالى(ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها)(42) وقوله تعالى(لاتجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضاً)(43) وقوله تعالى(طوافون عليكم بعضكم على بعض)(44) وقوله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا)(45) وقوله تعالى(ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً(46) وقوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى اوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً)(47) وقوله تعالى(ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول)(48) وقوله تعالى(فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولاضرا ونقول للذين ظلموا

ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون)(49) وقوله تعالى(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غرورا)(50) وقوله تعالى (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)(51) وقوله تعالى(فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)(52) وقوله تعالى(قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض)(53) وقوله تعالى(وإنّ كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم)(54) وقوله تعالى(ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريّا)(55) وقوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين)(56) وقوله تعالى(إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين)(57) وقوله تعالى(ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يُضل أعمالهم)(58) وقوله تعالى(ياآيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون)(59) وقوله تعالى(ولا تجسسوا ولايغتب بعضكم بعضاً)(60) وقوله تعالى(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)(61) وقوله تعالى(فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض)(62) وقوله تعالى(فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون)(63)

والثانية: من أحوال(بعض) أن تستعمل مضافة قد وردت فى القرآن الكريم واحدة وتسعين مرة، فأضيفت الى ضمير المخاطب عشرين مرة كقوله تعالى(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو)(64) وقوله تعالى(فإن أمن بعضكم بعضا فيلؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه ولاتكتموا الشهادة من يكتمها فإنه آثم قلبه والله بماتعملون عليم)(65) وقوله تعالى(فاستجاب لهم ربهم أني لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)(66) وقوله تعالى(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا)(67) وقوله تعالى(والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض)(68) وقوله تعالى (ولاتتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض)(69) وقوله تعالى(ويذيق بعضكم بأس بعض)(70) وقوله تعالى(ورفع بعضكم فوق بعض درجات)(71) وقوله تعالى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو لكم في الأرض مستقر إلى حين) (72)وقوله تعالى(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق)(73) وقوله تعالى(قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو)(74)وقوله تعالى(طوافون عليكم بعضكم على بعض)(75) وقوله تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضا)(76) وقوله تعالى(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا)(77) وقوله تعالى(ثم يوم القيامة يكف بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا)(78) وقوله تعالى(فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعاً ولاضرا نقول للذين ظلوا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون)(79) وقوله تعالى (ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم)(80) وقوله تعالى(يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون)(81) وقوله تعالى(ولايغتب بعضكم بعضا)(82).

وأضيفت(بعض) إلى ضمير الغائب أربعين مرة كقوله تعالى(وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بمافتح الله عليهم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون)(83) وقوله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها)(84) وقوله تعالى (ومابعضهم بتابع قبلة بعض)(85) وقوله تعالى(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض)(86) وقوله تعالى(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات)(87) وقوله تعالى(ذرية بعضها من بعض)(88) وقوله تعالى(بمافضل الله بعضهم على بعض)(89) وقوله تعالى(بعضهم أولياء بعض)(90) وقوله تعالى(وكذلك فتنّا بعضهم ببعض)(91) وقوله تعالى(يوى بعضهم الى بعض زخرف القول)(92) وقوله تعالى(ويجعل الخبيث بعضه على بعض)(93) وقوله تعالى(أولئك بعضهم أولياء بعض)(94) وقوله تعالي (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض)(95) وقوله تعالي (وأولو الأرحام بعضهم أولياء بعض)(96) وقوله تعالى(بعضهم من بعض)(97) وقوله تعالى(بعضهم أولياء بعض)(98) وقوله تعالى(نظر بعضهم إلى بعض)(99) وقوله تعالى(ونفضل بعضها على بعض)(100) وقوله تعالى(ومن الأحزاب من ينكر بعضه)(101) وقوله تعالى(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)(102) وقوله تعالى(ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا)(103) وقوله تعالى(بعضهم يومئذ يموج فى بعض)(104) وقوله تعالى(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض)(105)وقوله تعالى(فأتبعنا بعضهم بعضا)(106)وقوله تعالى(ولعلا بعضهم على بعض)(107)وقوله تعالى(ظلمات بعضها فوق بعض)(108)وقوله تعالى(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض)(109) وقوله تعالى(يرجع بعضهم إلى بعض القول)(110) وقوله تعالى (إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غروزا)(111) وقوله تعالى(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)(112) وقوله تعالى (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) (113) وقوله تعالى (ليبغي بعضهم على بعض) (114) وقوله تعالى(ورفعنا بعضهم فوق بعض) (115) وقوله تعالى (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا)(116) وقوله تعالى (بعضهم لبعض عدو)(117) وقوله تعالى (بعضهم أولياء بعض) (118) وقوله تعالى (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)(119) وقوله تعالى(عرف بعضه وأعرض عن بعض)(120) وقوله تعالى(فأ قبل بعضهم على بعض يتلاومون) (121).

وأضيفت (بعض) الى ضمير المتكلمين ثلاث مرات كقوله تعالى(ولايتخذ بعضنا بعضاً أربابا)(122)وقوله تعالى(ربنا استمتع بعضنا ببعض)(123)وقوله تعالى(خصمان بغى بعضنا على بعض(124).

وأضيفت إلى الاسم الموصول إحدى عشرة مرة كقوله تعالى(ولاحل لكم بعض الذى حرّم عليكم) (125) وقوله تعالى(استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا)(126) وقوله تعالى (لتذهبوا ببعض ماآتيتموهن)(127) وقوله تعالى واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله)(128)وقوله تعالى(وإما نرينك بعض الذى نعدهم)(129)وقوله تعال(فلعلك تارك بعض مايوحى اليك)(130) وقوله تعالى (واما نرينك

بعض الذى نعدهم)(131) وقوله تعالى(قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) (132) وقوله تعالى(ليذيقهم بعض الذى عملوا)(133) وقوله تعالى(وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم)(134) وقوله تعالى (فإما نرينك بعض الذى نعدهم)(135).

وأضيفت (بعض) إلى الاسم الظاهر سبع عشرة مرة كقوله تعالى(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)(136)وقوله تعالى(قال لبثت يوما أو بعض يوم)(137)وقوله تعالى(فإن توتوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم)(138) وقوله تعالى(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا)(139) وقوله تعالى(أو يأتي بعض آيات ربك) (140)(وقوله تعالى(يوم يأتي بعض آيات ربك)(141) وقوله تعالى(إن نقل إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء)(142) وقوله تعالى (يلتقطه بعض السيارة) (143) وقوله تعالى(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)(144) وقوله تعالى(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم)(145) وقوله تعالى (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم)(146) وقوله تعالى(استأذنوك لبعض شأنهم)(147) وقوله تعالى(ولو نزلناه على بعض الأعجمين)(148) وقوله تعالى (سنطيعكم فى بعض الأمر) (149) وقوله تعالى (إن بعض الظن إثم) (150) وقوله تعالى (وإذا أسر النبي الى بعض أزواجه) (151) وقوله تعالى (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل)(152)

وتنوب(بعض) عن المصدر وتعطى حكمه فى أنه منصوب علي أنه مفعول مطلق عندما تضاف الى المصدر مثل : أحببته بعض الحب (153).

والثالثة : من أحوال (بعض) أن تستعمل بالألف واللام ، فاختلف النحاة فى ذلك منهم من يجيزها ومنهم من يرفضها ، وحجة الرافضين أنها لم ترد فى القرآن الكريم و(بعض) معرفة فى جميع أحوالها : فإذا أضيفت إلى الضمائر أو الأسماء الموصولة أو الأسماء الظاهرة المعرفة بآل فإنها معرفة ، وإذا قطعت عن الإضافة الى ماسبق فإنها تنون والتنوين فيها عوض عن المضاف إليه المحذوف فهي معرفة لأنها مضافة إلى هذا المضاف اليه المحذوف. ففى قوله تعالى(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)(154) فبعض الثانية لحقها التنوين عوضاً عن المضاف إليه المحذوف أى على بعضهم فهى على التقدير معرفة .

إذن فما الذى تفيده (أل) عند دخولها على (بعض) إذا كانت معرفة فى جميع أحوالها ؟

وذكرت فى بداية الحديث أن الأولى من أحوال(بعض) أن تكون مجردة من (أل) والإضافة علي رأى النحاة فى احوالها (155) فهى لابد أن تكون مجردة من (أل) لانها على تقدير حذف المضاف إليه وهي على هذا التقدير ليست مجردة من الإضافة فهي مجردة لفظا وغير مجردة معنى، ويخطىء عباس أبوالسعود فى كتابه:(أزاهير الفصحى فى دقائق العربية) من يدخل (أل) علي كلمة(بعض) محتجا بأنها معرفة في نية الإضافة (156) وفي العباب قال أبو حاتم قلت للأصمعى فى كتاب ابن المقفع ـ العلم كثير ولكن أخذ البعض أولى من ترك الكل فأنكره أشد الإنكار وقال الألف واللام لاتدخلان فى بعض وكل لأنهما معرفة بغير ألف ولام قال أبو حاتم وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش في كتابيهما لقلة

علمهما بهذا النحو فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب(157).

استخلص من ذلك انه لاداعى لدخول الألف واللام على(بعض)لماسبق ذكره ولما ذكرناه من عدم ورودها معرفة (بأل) فى القرآن الكريم على أن بعض علمائنا يذكرون أن عدم ورودها فى القرآن الكريم ليس حجة على عدم استعمالها معللين أنه قد ورد فى كلام العرب ماليس فى القرآن الكريم وأن القرآن ليس كل كلام العرب ، وإن كان قمة كلامهم ، وبما أن القرآن الكريم قمة كلام العرب أليس ذلك بكاف أن نقيس عليه وأن يكون حجة لنا ؟

■ ■

الهوامش :

(1) تاج العروس للزبيدي المجلد الخامس ص 8 .
(ومنه قول طرفة بن العبد مخاطبا النعمان ابن المنذر:أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك «بعض الشرأهون من بعض»)
التحرير:«تراث الشعب»
(2) البقرة الآية 36
(3) البقرة جزء الآية 76
(4) البقرة جزء الآية 85
(5) البقرة جزء الآية 145
(6) البقرة جزء الآية 251
(7) البقرة جزء الآية 253
(8) البقرة الآية 283
(9) آل عمران الآية 34
(10) آل عمران الآية 64
(11) آل عمران جزء الآية 195
(12) النساء الآية 21
(13) النساء جزء الآية 25
(14) النساء جزء الآية 32
(15) النساء جزء الآية 34
(16) النساء جزء الآية 150
(17) المائدة الآية 51
(18) الأنعام جزء الآية 53
(19) الأنعام جزد الآية 65
(20) الأنعام جزء الآية 112
(21) الأنعام جزء الآية 128
(22) الأنعام الية 129
(23) الأنعام جزء الآية 165
(24) الأعراف الآية 24
(25) الأنفال الآية 37
(26) الأنفال جزء الآية 72
(27) الأنفال الآية 73
(28) الأنفال جزء الآية 75
(29) التوبة جزء الآية 67
(30) التوبة جزء الآية 71
(31) التوبة جزء الآية 127
(32) الرعد جزء الآية 4
(33) النحل جزء الآية 71
(34) الإسراء جزء الآية 21
(35) الإسراء جزء الآية 55
(36) الإسراء جزء الآية 88
(37) الكهف جزء الآية 99
(38) طه جزء الآية 123
(39) الحج جزء الآية 40

(40) المؤمنون جزء الآية 44
(41) المؤمنون جزء الآية 91
(42) النور جزء الآية 40
(43) النور جزء الآية 63
(44) النور جزء الآية 63
(45) الفرقان جزء الآية 20
(46) العنبكوت جزء الآية25
(47) الأحزاب جزء الآية 6
(48) سبأ جزء الآية 31
(49) سبأ جزء الآية 42
(50) فاطر جزء الآية 40
(51) الصافات جزء الآية 27
(52) الصافات جزء الآية 50
(53) ص جزء الآية 22
(54) ص جزء الآية 24
(55) الزخرف جزء الآية 32
(56) الزخرف جزء الآية 67
(57) الجاثية الآية 19
(58) محمد جزء الآية 4
(59) الحجرات الآية 2
(60) الحجرات جزء الآية12
(61) الطور الآية 25
(62) التحريم جزء الآية 3
(63) القلم الآية 30
(64) البقرة جزء الآية 36
(65) البقرة الآية 283
(66)آل عمران جزء الآية 195
(67) النساء الآية 21
(68) النساء جزء الآية 25
(69) النساء جزء الآية 32
(70) الأنعام جزد الآية 65
(71) الأنعام جزء الآية 165
(72) الأعراف الآية 24
(73) النحل جزء الآية 71
(74) طه جزء الآية 123
(75) النور جزء الآية 58
(76) النور جزء الآية 63
(77) الفرقان جزءالآية 20
(78) العنكبوت جزء الآية 25
(79) سبأ الآية 42
(80) محمد جزء الآية 4
(81) الحجرات الآية 2
(82) الحجرات جزء الآية 12
(83) البقرة جزء الآية 76
(84) البقرة جزء الآية 73
(85) البقرة جزء الآية 145
(86)البقرة جزء الآية 251
(87)البقرة جزء الآية253
(88) آل عمران جزء الآية 34
(89) النساء جزء الآية 34
(90) المائدة جزء الآية 51
(91) الأنعام جزء الآية 53
(92) الأنعام جزء الآية112
(93)الأنعام جزء الآية37
(94)الأنعام جزء الآية 72
(95) الأنعام جزء الآية 73
(96) الأنعام جزء الآية 75
(97) التوبة جزء الآية 67
(98)التوبة جزء الآية 71
(99)التوبة جزء الآية 127
(100) الرعد جزء الآية 4
(101) الرعد جزء الآية 36
(102) الإسراء جزء الآية 21
(103) الإسراء جزء الآية 88

(104) الكهف جزء الآية 99
(105) الحج جزء الآية 40
(106) المؤمنون جزء الآية 44
(107) المؤمنون جزء الآية 91
(108) النور جزء الآية 40
(109) الأحزاب جزء الآية 6
(110) سبأ جزء الآية 31
(111) فاطر جزء الآية 40
(112) الصافات الآية 27
(113) الصافات الآية 50
(114) ص جزء الآية 24
(115) الزخرف جزء الآية 32
(116) الزخرف جزء الآية 32
(117) الزخرف جزء الآية 67
(118) الجاثية جزء الآية 19
(119) الطور الآية 25
(120) التحريم جزء الآية 3
(121) القلم الآية 30
(122) آل عمران جزء الآية 64
(123) الأنعام جزء الآية 128
(124) ص جزء الآية 22
(125) آل عمران جزء الآية 50
(126) آل عمران جزء الآية 155
(127) النساء جزء الآية 19
(128) المائدة جزء الآية 49
(129) يونس جزء الآية 46
(130) هود جزء الآية 12
(131) الرعد جزء الآية 40
(132) النحل الآية 72
(133) الروم جزء الآية 41
(134) غافر جزء الآية 28
(135) غافر جزء الآية 77
(136) البقرة جزء الآية 85
(137) البقرة جزء الآية 259
(138) المائدة جزء الآية 49
(139) الأنعام جزء الآية 129
(140) الأنعام جزء الآية 158
(141) الأنعام جزء الآية 158
(142) هود جزء الآية 54
(143) يوسف جزء الآية 10
(144) الإسراء جزء الآية 55
(145) الكهف جزء الآية 19
(146) المؤمنون جزء الآية 113
(147) النور جزء الآية 62
(148) الشعراء الآية 198
(149) محمد جزء الآية 26
(150) الحجرات جزء الآية 12
(151) التحريم جزء الآية 3
(152) الحاقة جزء الآية 44
(153) انظر:الكامل في النحو والصرف والإعراب ص131
(154) البقرة جزء الآية 253
(155) انظر: مجلة مجمع اللغة العربية ـ جـ 52 ـ ص166
(156) انظر:معجم الخطأ والصواب في اللغة ص92، 93
(157) انظر:تاج العروس للزبيدى،المجلد الثامن صفحة 100

المصادر والمراجع:

1ـ القرآن الكريم المفسّر الميسّر مختص تفسير الإمام الطبرى ، طبعة إذاعة القرآن الكريم.

2ـ تاج العروس للإمام اللغوي السيد محمد مرتضى الزبيدي ، طبع على مطابع دار صادر بيروت 1966 دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي.

3ـ الكامل في النحو والصرف والإعراب، أحمد قبش ، الطبعة السادسة 1985 دار الرشيد بيروت

4ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الجزء الثانى والخمسون ، نوفمبر 1983م.

45ـ معجم الخطأ والصواب فى اللغة ، أميل يعقوب ، دار العلم للملايين ، بيروت إعادة الطبعة الأولى ، يوينو 1911م

6ـ هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن ، محمد صالح البنداق ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت الطبعة الزولى 1981م

«سيناون» التى نخيلها «صنوان»

طرابلس أم أطرابلس؟!

«لقد سررت كثيراً بعودة «تراث الشعب» وتعاظم شعورى بالمسرّة عندما قلبتها وأنا فى حالة لاتوصف من الانبهار بالمستوى الفنى الرائع الذى أخرجت به ولعمرى إنها لجديرة بأن تمثل بلادنا مع جيراننا من إخوة أشقاء أصدقاء فى مشرق وطننا العربى الكبير ومغربه بل وتعمم فى جميع مراكزنا الثقافية فى قارات العالم الست».

بهذه الكلمات «التى نشكره عليها» يفتتح القارىء «معمر سعد الصغير» من طرابلس رسالته التى ضمنها الكثير من المعلومات والتساؤلات أيضا مما يدل على ثقافته الطيبة بل واستعداده الواضح فى رسالته للكتابة التى ستلقى - إذا حاول - مجالاً لنشرها.

ويرفق القارئ المثقف «معمر سعد الصغير» برسالته المطولة بطاقة بريد مصورة هى التى جعلناها صورة أو لوحة لغلاف هذا العدد من «تراث الشعب» يقول عنها:

إنها صورة تذكارية تباع الآن فى الأسواق كتب عليها أنها من فزان وهى ليست منها وإنما هى للقلعة فى واحة «سيناون» جنوب غرب طرابلس بـ396كم.

ويقدم القارئ العزيز معلومة جديدة وطريفة وجديرة بأن تعرف وهى أن تسمية «سيناون» جاءت من نخيلها الذى ينبت صنوانا كما تظهر الصورة - أى متلاصقاً وكما جاء فى قوله تعالى فى الآية الرابعة من سورة «الرعد» :(..ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد..) وقد تم تحريف الاسم عبر السنين من «صنوان» الى «سيناون».

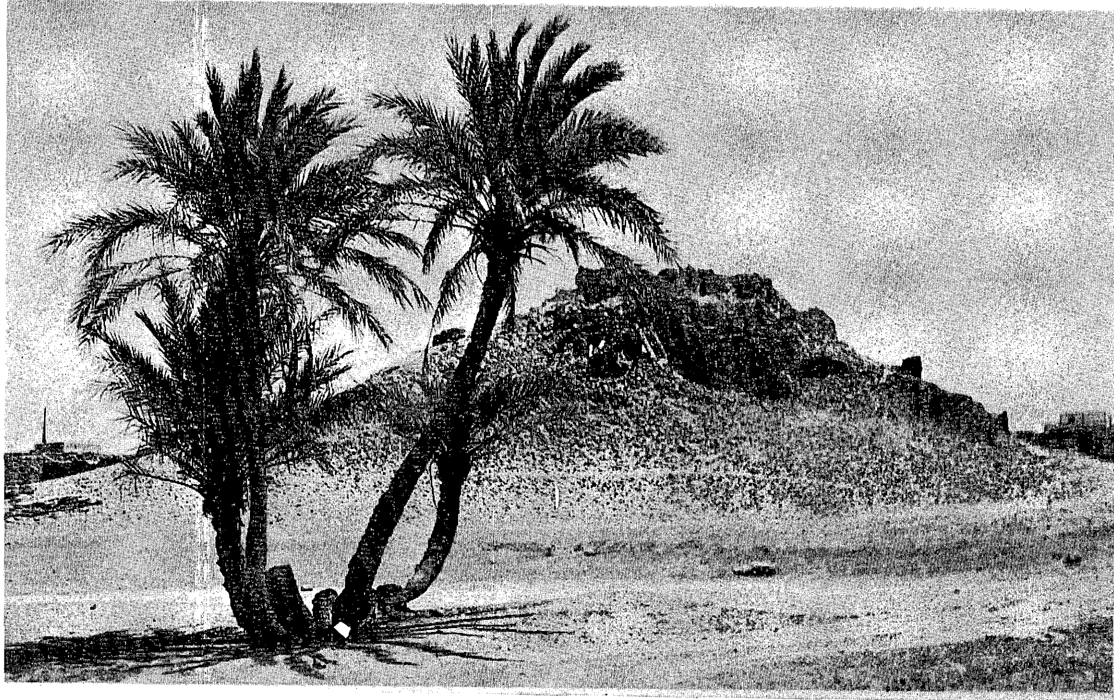
ونحن نقول إن هذا يدل دلالة واضحة على عروبة المنطقة وعلى إيغالها فى العراقة العربية وليس ثمة برهان أسطع من برهان كونها استمدت اسمها من فصيح كلام العرب الذى ورد فى آي القرآن الكريم .وصنوان فى الآية الكريمة جمع: صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها وأما غير صنوان فتعنى منفردة.

ويقول القارئ فى رسالته:

«مايكتبه د.على فهمى خشيم يحتاج إلى وقفات ولديه قدرة غريبة على الإقناع فلافضّ فوه ولاثلث يمينه أو يسراه.

ويقول:

«إن كل ماينشر عن مدينة طرابلس مسقط



رأسي ومرتعي يهمني كثيرا ولا أقل من قراءته فهل هى طرابلس عندكم أم (إطرابلس) كماهى عند أسبوعية «الشط» ؟!

وهل هى حقا - كمدينة حضرية أقدم من القاهرة المحروسة وبعض العواصم العربية الأخرى؟!

ونقول للقارئ:

إن الشاهد الوحيد الذى ذكرت فيه طرابلس (أطرابلس) بهمزة مفتوحة فى أولها هو الذى يرد فى هذين البيتين المذكورين فى بعض المراجع منها مثلاً كتاب« المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب» لأحمد النائب والمنسوبين الى أحمد بن يحيى من شعراء القرن الثانى أو القرن الثالث الإسلاميين (الثامن والتاسع):

(لقد زاد شوقى إلي فتية
حسان الوجوه بأطرابلس
وقدعيل صبري فمامسعدى
على الشوق إلا دموعي الحبس)

ولعل ضرورة الوزن هى التى جعلت قائلها يضيف الهمزة أو الألف إلى طرابلس.

وفي كتاب(ياقوت الحموى) :(المشترك وضعاً المفترق صقعا) أى الاسم الواحد المشترك لمناطق متعددة مختلفة يذكر أن زيادة الهمزة إنما هى لطرابلس (أطرابلس) الشام أو لبنان الآن تمييزا لها من طرابلس مدينتنا الخالدة التى هى أقدم من القاهرة والعديدمن المدن العربية الكبرى لأن الأصل فيها أنها مأخوذة عن (الرومية) - كما يقول ياقوت الحمدي -

(طرابلس) (تريبوليس) ومعناها كما يقول أيضا وهو المعروف الثلاث المدن.

وللقارئ معمر سعد الصغير اسئلة أخرى فى رسالته سنحيلها على أهل الاختصاص من الباحثين للإجابة عنها وننشرها في أعداد قادمة.

ومع تكرار شكرنا له نورد مقتطفا مماختم به رسالته وهو قوله:« أتصور أنه على المطبوعات الدورية أن تفتح صفحاتها للقراء وذلك بإفساح المجال لهم ولتساؤلاتهم فى تصحيح أو تعقيب أو خلافهما وإلا فإنها ستبقي مهددة بالانقراض فى أية لحظة مادامت تمارس أسلوب مخاطبة أهل الاختصاص والمهتمين فحسب، يبقى هذا مجرد رأى أو لنقل وجهة نظر ليس إلا ؟! »

ونحن بدورنا نقول له إن هذا هو الذى نعمل له ونسعى إليه وننطلق من مفهومه:

أهل الاختصاص والمهتمون للكتابة فقط ولكن التوجه لجميع القراء الذين تفتح «تراث الشعب» صفحاتها لهم وبهم دائما ونشر رسالته دليلنا على ماقلنا.



إلى القارىء باللغة الإنجليزية :

هذه المجلة « تراث الشعب » تتوجه إلى قارئها بدراسات و أبحاث متخصصة في التراث العربي والمأثورات و الفنون الشعبية يكتبها دارسون و باحثون من ليبيا . و الاقطار العربية الأخرى .

و تحاول . و سعها . أن تسهم في تجديد التراث العربي بالقاء أضواء كاشفة على بعض خفاياه غير المعروفة و غير المنشورة و تسعى إلى أن تسجل و توثق للكثير من الظواهر و المظاهر الاجتماعية كالعادات و التقاليد والألعاب و الأزياء و الفنون الشعبية (السمعية و الحركية والتشكيلية) التى تكاد تندثر أو يطويها النسيان .

كما تهتم بدراسة اللغة العربية وما يتصل بها من شعر و غناء و موسيقا بالإضافة إلى تأصيل الألفاظ العامية والتعابير الشعبية العربية (الحكم والأمثال) و العودة بها إلى جذورها في اللغة الفصحى .

TO The Eanglish - Language Reader

This magazine Turath Ash-Sha'b presents to its readers specialised studies and researches on Arab heritage, sayings and popular arts, contributed by scholars and researches from Libya, where the magazine is published, and from other Arab countries .

The magazine seeks to contribute in research on the Arab heritage by shedding light on hithen to unknown or unpublished respects of this heritage. The magazine aims at recording and documenting much of the social aspects and features such as customs, traditions, games, fashions and popular arts, some of which are about to desappear or to be forgotten

The magazine is also interested in the study of the Arbic language, -including poetry, songs and music and in establishing the roots, in classical Arabic of colloqual terms and popular expressions (adages and proverbs) .

The Editor

تراث الشعب

TURĀTHU ASHSHAʿAB

(the People's Heritage)

A Quarterely Specialized Magazine

Published by :

The General people's Committe for Information, Culture and Mass Mobilization - Tripoli

G . S . P . Libyan Arab Jamahiriya .

The Editor : Dr. Muhammad A. Oraieth

17'th Year , No . 1 (Serial No : 36) - 1997

P . O . Box : 634 Tripoli

Tel : 33.34081 / 144

Fax : 44.44687

التنضيد و التجهيز :	الطباعة :	التوزيع :
الإدارة الفنية بالمؤسسة العامة للصحافة	الشركة العامة للورق و الطباعة . طرابلس	الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الإعلان

تراث الشعب

TURĀ:THU ASHSHA:AB

(The People's Heritage)

A Quarterely Specialized Magazine

ثمن النسخة :

- نصف دينار . ل . في الجماهيرية العظمى .
- ما يعادل ديناراً . ل . واحداً في الوطن العربي .
- ما يعادل دينارين . ل . في بقية دول العالم .